١

الأعلان الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم



الإعلان الإسلامي

تقديم وترجمة
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٤٧٢٨ / ٢٠٠٩م

I S B N
978- 977- 481- 033- 6

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بيجوفيتش ، علي عزت ، ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٣ .
الإعلان الإسلامي/ علي عزت بيجوفيتش ؛ تقديم وترجمة محمد يوسف عدس . ـ القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .
١٦٠ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٦ ٠٣٣ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الثقافة الإسلامية ٢ـ الفلسفة الإسلامية
أ ـ العنوان ب ـ عدس ، محمد يوسف (مُقدّم ومترجم)

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع
القاهرة : ٣ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر ـ ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٢٦٧٦٧٩٧ ـ ٠١٠/٦١٨٦١١٤

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَةُ ٱلطَّبْعَةِ ٱلثَّانِيَةِ

هذه هى الطبعة الثانية لكتاب « الإعلان الإسلامي » لمؤلّفه على عزت بيجوفيتش المفكر الإسلامي العظيم الذى تُرجمت مؤلفاته إلى كل لغات العالم الحية ، وكان لى شرف ترجمة أهمها وأكثرها تأثيرًا فى الفكر الإسلامي المعاصر، وأعنى به كتاب « الإسلام بين الشرق والغرب » . هذان الكتابان معا يشكّلان العمود الفقرى لمشروع بيجوفيتش للنهضة فى العالم الإسلامي ، بجانبيه : النظرى التحليلي ، والتطبيقي التركيبي ، يمثل الكتاب الأول الجانب النظري التحليلي ، ويمثل الثانى (الإعلان الإسلامي) الجانب التطبيقي التركيبي ، فهما كتابان متكاملان من حيث الموضوع والهدف . يرسم بيجوفيتش فى كتابه الإعلان الإسلامي القواعد الأساسية لبناء مجتمع إسلامي حديث ، ويوضّح المبادئ العامة الأساسية لتطوير منظومة سياسية واقتصادية ، لإقامة دولة إسلامية تتمثل فيها تعاليم وروح التوجّهات القرآنية والسنة النبوية الصحيحة ، وهو فى هذا يجعل بناء المجتمع الإسلامي شرطًا جوهريا سابقا على إقامة الدولة الإسلامية ، ومن ثم فهو يؤكد على أهمية التعليم والتربية والعلم والصناعة والبحث العلمي ، للخروج من حالة التخلف المروعة والسلبية السائدة فى بلاد المسلمين .

يلفت بيجوفيتش أنظارنا بقوة إلى الأخطاء والمحاذير والغوايات التى تقع فيها الحركات الإسلامية وهى بسبيل تحقيق أهدافها فى إقامة دولة إسلامية ، مؤكدا على حقيقة جوهرية ، وهي أن الغايات النبيلة لا يمكن تحقيقها إلا بوسائل نبيلة ، وأن اللجوء إلى ما دون ذلك من وسائل ، تكون عواقبه دائما وخيمة على الحركة الإسلامية، وعلى وضع الإسلام نفسه وصورته فى عقول الناس ووجدانهم ، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام : : ١٠٨] .

لهذا الكتاب قصتان : قصة مع مؤلفه وقصة معى أنا شخصيا ، وقد تطرّقتُ

إليهما بشيء من التفصيل فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب ، ولكني أضيفُ هنا حقيقةً يَجِبُ أن يتنبّه إليها القرّاءُ خصوصًا أولئك الذين يطّلعون على شبكة الإنترنت فسيلاحظون أن حملة التشويه الصربية لشخصية على عزت بيجوفيتش لا تزالُ قائمةً على قدم وساق رغم مرور السنين ورغم وفاة الرجل نفسِه وغيابِه عن الساحة السياسية والإعلامية ، وقد كان فى حياته ملء السمع والبصر ، هذا المفكر الإسلامي العظيم لا تزالُ أفكارُه ومُنجزاتُه وقوةُ تأثيرِه الفكريِّ والأخلاقيّ ، وقدرتُه المنطقيةُ الفائقةُ على التحليل والإقناع ، يُحسب لها ألفُ حسابٍ (لا فى منطقة البلقان فحسب وإنما فى أوربّا بأسرها) ، وخصوصًا من جانب الكارهين للإسلام ، الكارهين للانبعاث الإسلامي فى أي بقعة من العالم ، فإذا أردتَ أن تعرفَ شيئا عن الحملات المستمرة علىٰ بيجوفيتش فانظرْ « موسوعة الويكيبيديا » ، واقرأ المقالات الصربية والإسرائيلية الحافلة بالأكاذيب والافتراءات . بعضُ هذه المقالات خاليةٌ من توقيع أصحابِها حتى لا يشتبه القارئُ فى مصادرها أو يتشكك فى أهدافها . وعلى كل حال هي جزءٌ من الحملات الشاملة المخططة لتشويه الإسلام وتاريخه وصورة نبيّه وحضارته ورموزه جميعا ، ولكن الله غالبٌ على أمره ، وصدق الله العظيمُ حيثُ يقول : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥- ١٧] . نسأل الله التوفيق والهداية .

محمد يوسف عدس

الإسكندرية في :
١٨ محرم ١٤٣١هـ
الموافق ٤ يناير ٢٠١٠م

مُقَدِّمَةُ ٱلطَّبْعَةِ ٱلْأُولَى

هذه مقدِّمة غير عادية لكتاب غير عادي ومؤلِّف غير عادي أيضًا .

أما أن كتاب « **الإعلان الإسلامي** » كتاب غير عادي فيكفي تدليلًا على ذلك أنه أثار عاصفة سياسية إعلامية لا في يوغسلافيا وَحْدها ، بل في أوربا والعالم الغربي بأسْرِه .

وهي عاصفة بدأت قبل حرب البوسنة بعشر سنوات ثم صَاحَبَت الحرب واستمرت آثارها باقية إلى اليوم .

ويكفي أن هذا الكتاب اعتبرته السلطات اليوغسلافية الوثيقة الأساسية التي قُدِّمت إلى محكمة « سراييفو » عام ١٩٨٣ لإدانة مؤلفه بتهم مُلَفَّقة سنتناولها بالتفصيل في موضعها من المقدمة ، والمهم أن هذا الكتاب استخدم ذريعة لتجريم علي عزت والحكم عليه بالسجن أربع عشرة سنة .

ويكفي أن هذا الكتاب قد تعرَّض لقدر هائل من التعليق والنقد والتجريح والدفاع والهجوم ، بل تَعَرَّض للتَّحريف والتشويه حتى أصبحت له شُهْرة مدوِّية عند المثقفين والقُرَّاء ، الأصدقاء منهم والأعداء ، سواء منهم الذين قرأوه في لغته الأصلية « الصِّربو – كرواتية » صحيحة أو محرَّفة ، أم الذين قرءوا نُسَخَه المُتَرْجَمة إلى مختلف اللغات العالمية ، أم الذين اكتفوا بقراءة الملخصات والتعليقات التي حَفِلت بها الصحف والكتب في شتى أنحاء العالم ، بل حتى الذين لم يقرءوا شيئًا من ذلك ، بل سمعوا عنه فَحَسْب .

وكان من نتائج هذه الشهرة الذائعة أن ارتبط ذكر هذا الكتاب بلازمة نمطية « مقولبة » هي : « إقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة » على أساس زَعْم بأن هذا الموضوع الرئيسي للكتاب وهو هدفه النهائي في نفس الوقت . وسَنَرى إلى أيّ مدًى ينطبق هذا الزَّعم على حقيقة الكتاب عندما نتطرق إلى هذه النقطة في سِيَاق المقدمة ، ليكشف القارئ بنفسه أنه أمام زَعْم باطل وفِرْيَة كبرى مُفْتَراة ، من أجل ذلك كله كان هذا الكتاب كتابًا غير عادي .

أما **مُؤَلِّف الكتاب « علي عزت بيجوفيتش »** فَأزعم أنه رجل غير عادي ؛ لا لأنه رئيس جمهورية « البوسنة والهرسك » وأنه من النادر أن تُصَادف رئيسًا على هذا المستوى الرفيع من الفكر والثقافة . ولا لأَنَّه قَادَ جهاد شعب البوسنة الأَعْزَل في أَحْلَك فترات تاريخه ضد التدخل الصِّربي الغَاشم ، وضد المؤامرات والتَّواطؤ الغَرْبي الفاضح ، وضد التَّخَاذُل المهين للمجتمع الدولي الذي وقف يُشَاهِد مذابح البوسنة دون أن يحرك ساكنًا ، ولا لأنه مفكر إسلامي وإنساني من طراز فريد ، استحق جائزة الملك فيصل على كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » الذي تَشَرَّفْت بترجمته إلى اللغة العربية ؛ فهو من الرِّجال الأفذاذ الذين يشرّفون الجائزة ويرتفع قَدْرُها بهم ، ولا لأَنَّه يكتب ما يؤمن به ويقف مُدَافعًا عن رأيه في الحق متحملًا صُنُوف الأذى والطُّغيان ، حتى أنه بسبب ذلك أمضى في السجون اليوغسلافية زهرة شبابه وشَطْرًا من كُهُولته دون أن يَفُتّ ذلك في عَضده ، ولا لأنه ضرب أَعْلى الأمثلة بسيرته المتواضعة وزُهْده وشُمُوخه واعتزازه بعقيدته وَرَفْضِه الانحناء أو المواربة والالتواء أمام كل ما تَعَرَّض له من إغراءات وما وُجِّه إليه من ضُغوط وتهديدات في كل مراحل حياته . لقد رَفَضَ علي عزت بعد أن تم انتخابه رئيسًا للجمهورية أن يُغَادر مَسْكَنه المتواضع في شقة صغيرة مع أسرته ومجموعة من الجيران السَّابقين ، متحملًا معهم شَظَف العيش ومخاطر الحياة اليومية في مدينة سراييفو التي ظل الصِّرب يُحَاصرونها ويَقْصفونها بقذائفهم قرابة أربعة أعوام متواصلة ، لم يشأ علي عزت أن ينتقل إلى قصر رئاسة الدولة وهو حَقُّه ، ولا أن يحيا حياة أكثر أَمْنًا وأكثر راحة من بقية المواطنين البوسنويين ، بل آثر أن يبقى مع جيرانه في بيت مُتَواضع يشاركهم في المسكن والمأكل والمشرب ، ويُعَاني معهم مخاطر الحياة اليومية في المدينة المحاصرة . وتلك لعمري وحدها سيرة شخصية يرتفع بها أي رجل إلى مصاف الأبطال العظام والحكام الأتقياء الزاهدين الذين يَنْدُر مثالهم في التاريخ .

كل ذلك صحيح وثابت في سيرة مَؤلِّف هذا الكتاب ، ولكن الذي لَفَت نظري في خُلُق هذا الرجل مع كل هذا وَفَوْقه ، وتجاوز به كل توقُّعات الناس سواء منهم الأصدقاء أو الأعداء – لَفَت نظري التزامه بالمبادئ الأخلاقية تحت كل الظروف والأوضاع ، فقد

عُرفَ علي عزت بمبادئه الأَخلاقية والإنسانية قبل أن يتولَّى قيادة شعبه وقبل أن يتولَّى السُلطة في بلاده ، وقبل أن يتعرَّض شعبه لحرب إبادة وحشية استخدمت فيها أَحَطّ الأساليب وأكثرها وَضَاعة ، ولكن علي عزت عندما تمكَّن جيشه في النهاية من رقبة أعدائه ، وتحقَّقت له انتصارات كاسحة عليهم ، لم يُواجه الوحشية والوَضَاعة بأساليب مماثلة ، فلم ينتهك جنوده عرضًا ، ولا استهدفوا بانتقامهم المدنيين والأطفال والمرضى في المستشفيات ، ولم يستخدموا القنابل والقذائف المحرمة دوليًا ، ولم يُقيموا معسكرات للإبادة الجماعية ، ولم يَحْرقوا البيوت والمعابد والأشجار والزروع ، لم يفعلوا شيئًا مما فعله بهم أعداؤهم عندما أصبح لجيش علي عزت اليد العليا عليهم .

إنها الحرب القذرة وكل شيء فيها جائز بمعايير هذا الزمن ، لكن مَعَايير الإسلام وتعاليمه تختلف عن معايير الحضارة المعاصرة ، فلم يكن علي عزت بيجوفيتش ينفذ تعاليم أخلاقية وإنسانية آمن بها فقط ، وإنما كان في مواقفه وسلوكياته مرتبطًا بتعاليم الإسلام التي التزم بها القادة والجنود في حروبهم ومعاركهم . ولكن هذا المسلك المتميز لجيش البوسنة المسلم بقيادة علي عزت بيجوفيتش - رغم الجروح الغائرة في أعماق القلوب - هذا المَسْلَك الأخلاقي جديرٌ بأن تقف الإنسانية عنده طويلًا لتتأمل وتعتبر .

لقد كان الرجل دائمًا نصيرًا للحق والعدل والحرية داعيًا مخلصًا للديمقراطية وحقوق الإنسان كارهًا للتَّعَصُّب والعنصرية ، مؤمنًا بأن قَدَر بلاده أن تحيا فيها شتى الأعراق والأديان والطوائف على اختلافها جنبًا إلى جَنْب في تعاون وسلام .. ورغم كل مَا نَزل بالقائد وشعبه من نَوازل لم يتخل عن هذه المبادئ قَيْد أُنملة .. وهذا هو المَحَكّ العملي والاختبار الصَّعب الذي تجاوزه علي عزت بنجاحٍ ساحقٍ شهد به الأعداء قبل الأصدقاء . ولهذا اعتبرته رجلًا غير عادي .

ولما كان كتاب « الإعلان الإسلامي » ومؤلّفه ظاهرتين غير عاديتين فقد استحقا مقدّمة تتناسب مع قَدْرهما ، مقدمة تتناول طبيعة هذا الكتاب وتاريخه وما تعرض له من صُنُوف الهجوم والتّجريح والتحريف ، كما تعرض لآراء نخبة من المفكرين والصحفيين والكتاب الغربيين المشهود لهم بالموضوعية وتحرّي الحقيقة في سعيهم لكشف ما أحاط

بالكتاب ومؤلفه من ادعاءات زائفة ومزاعم باطلة .

لذلك اشتملت المقدمة على ثلاثة أقسام :

الأول : خاص بالمؤلِّف جعلته تحت عنوان : علي عزت بيجوفيتش فِكْرهُ ومواقفه .

والثاني : عن الكتاب تحت عنوان : الإعلان الإسلامي المفترى عليه ، عَرَضت فيه آراء الباحثين الغربيين المنصفين كشهود على النَّص وعلى صاحبه.

ثم ختمت بخلاصة مُوجزة للأفكار الرئيسة للكتاب من واقع عبارات المؤلِّف نفسه وهو صاحب القضية .

ولقد تبيَّن لي خلال بحثي واستعراضي لما كُتب عن الكتاب ومؤلِّفه ، أن الهجوم والتحريف والتشويه الذي لحِق بالكتاب وصاحبه لم يأت عفو الخاطر ، وإنما جاء نتيجة لخطة مُحْكَمة التَّدبير تعتمد على الأساليب العلمية الحديثة في الحرب النفسية الإعلامية ، من بينها ما يعرف اليوم بالقولبة وهي ترجمة للمصطلح الإنجليزي « Stereotyping » وسنرى كيف استخدم هذا الأسلوب في تشويه صورة المؤلف وكتابه وكيف تَسَلَّلت هذه الصورة المقوْلبة إلى وسائل الإعلام العربي في غفلة من أصحابه .

وفي النهاية لابد أن أشير إلى حقيقة مهمَّة اتَّضَحت لي خلال قراءاتي حول الكتاب وخلال اطِّلاعي على النُّسَخ الإنجليزية منه ، وهي أنني لاحظت اختلافات في النَّص بين نسخة وأخرى ، وهو ما أشار إليه بعض الكُتَّاب البريطانيين الذين اطَّلعوا على النص الأصلي في لغته « الصِّربو – كرواتية » ؛ لذلك كنت حريصًا قبل الشروع في ترجمة الكتاب على التثبت من سلامة النَّص الإنجليزي ومن صِحَّة نِسْبَته إلى مؤلفه .

ولقد تهيأت لي ظروف مُواتية للقيام بمراجعات كثيرة في هذا الشأن حيث تمكَّنت من ضبط النَّص الإنجليزي ، ومن ضَبْط أرقام الآيات والسُّور القرآنية التي استشهد بها المؤلّف سواء في سِياق المتن أو في هوامشه ، حيث اكتفى بالإشارة إلى الأرقام دون إيراد الآيات نفسها ، ولما شَعرت بأن هذا الوضع يُشَكِّل صُعوبة للقارئ الذي يضطر – كل مرة يَرِد فيها رقم آية ما – إلى الرجوع إلى المصحف يبحث عنها ، فقمت بإثبات هذه

الآيات في سياقاتها من المتن أو في الاستشهادات المَرجْعية بالهوامش تيسيرًا على القارئ .

ولقد ساعدني في هذا الشأن صديقي الدكتور محمد أفضل الذي تصادف وجوده في « جامعة جرينتش » بلندن في مهمة بحثية مبعوثًا من باكستان ، كما تفضَّل - مشكورًا - بالقيام بمهمة عرض النَّص الإنجليزي المحقق على الرئيس « علي عزت » للحصول على موافقته تمهيدًا لنشره .

هذا وكنت قد انتهيتُ من ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية خلال إقامتي بلندن ، وقُمت بتسليمه إلى الناشر في ١٨ مايو ١٩٩٤ على أمل أن يتم نشره مع كتاب عن البوسنة اخترت لهما عنوانًا جامعًا هو « الإعلان الإسلامي لعلي عزت بيجوفيتش وكارثة البوسنة بين الحقيقة والأسطورة » ، ولكن شاءَت الأقدار - لظروف غير مواتية - أن يتأخَّر نَشْر الكتاب لفترة طويلة تجاوزت العامين ، جدَّت فيها أحداث كثيرة في مجرى الحرب البوسنوية مما استدعى ضرورة إعادة النظر في الكتاب . ومن ثم رأيت أنه من الأفضل أن يتم نشر كتاب « الإعلان الإسلامي » منفصلاً ، وأن أعكف بعد ذلك على دراسة الأحداث التي جرت من الفترة المذكورة آنفًا ، بحيث تنعكس نتائج هذه الدِّراسة في كتابي عن البوسنة مستعينًا بما تجمع لديّ من الصحف الأجنبية والغربية ، ومن الكتب التي تناولت هذا الموضوع أثناء إقامتي في لندن ، وكذلك مُتَابعتي لما يجري في البوسنة في المرحلة الحالية بعد « اتفاقية دايتون » .

أما بالنسبة لكتاب « الإعلان الإسلامي » فإن ما يعنيني أكثر من أي شيء آخر هو أن أُزيل مَا عَرَاه من تَشْويه مُتَعمَّد من قبل جهات مشبوهة ، وأن أناقش التُّهم الموجهة إلى الكتاب وإلى مُؤَلِّفه ، وأن أكشف عن الأهداف الكامنة وراء هذا التشويه ، وعن سِرّ الحملات الهجومية التي شُنَّت عليهما مُسْتعينًا في ذلك بشهادة نُخبة من أبرز الباحثين والكُتَّاب والصحفيين والمُنْصِفين .

بعد ذلك يستطيع القارئ أن يتناول هذا الكتاب مُتَحررًا من الأوهام والأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة التي صَنَعَها له الآخرون لتضليله أو لَصَرْفه نهائيًا عن قراءة الكتاب .

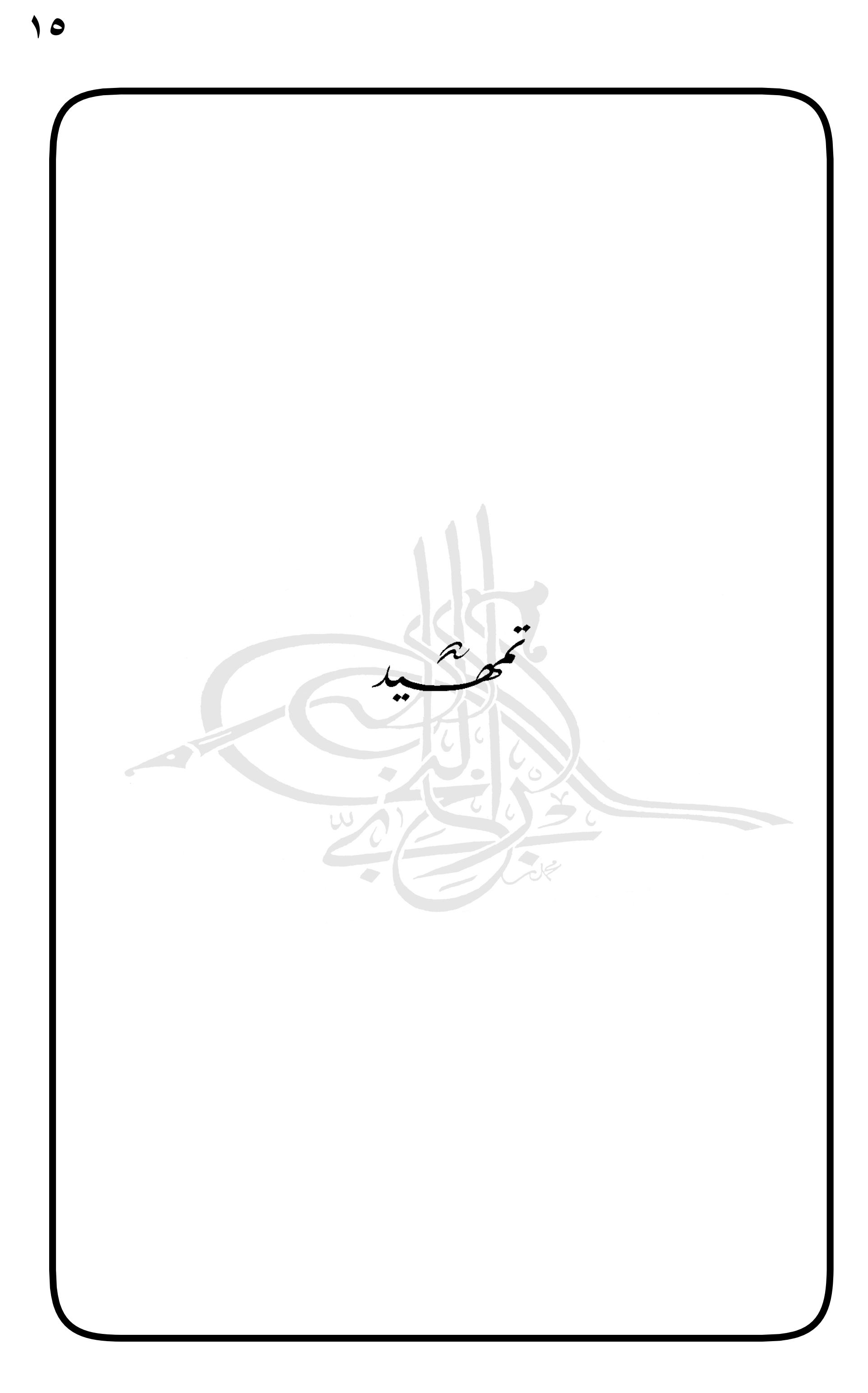
وعندما يتحرَّر عقل القارئ يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة وأن يُكَوِّن لنفسه حُكْمه الخاص على الكتاب ، ويتعرَّف على قيمته الحقيقية ، كما يستطيع أن يستمتع – في الوقت نفسه – بقراءة نَصّ صَاغه مُؤَلّفه بإيجاز مبدع وضمّنه أفكارًا جديدة مُدَعَّمة بمنطقٍ قويٍّ وتحليلٍ ذكيٍّ .

لقد بذلت جهدي في إضاءة هذا النَّص وفي إزالة مَا عَلق به من لَبْس ، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في تحقيق هذا الهدف ، والله هو الموفق وهو الهادي إلى طريق الرشاد .

محمد يوسف عدس

الإسكندرية في ٢٢ يونيه ١٩٩٦





تمهيد



علي عزت بيجوفيتش : فكره ومواقفه

كان قَدَر « علي عزت بيجوفيتش » منذ بداية النظام الشيوعي في يوغسلافيا في سنة ١٩٤٥ أن يَتَلَقَّى تُهمًا مُلَفَّقة وأن يُعاقب عليها بالسجن . وكانت أول مرَّة يُزَجُّ به في السجن عندما كتب مَقالًا يَرُدُّ فيه على الهجمات الظالمة التي شنَّها الشيوعيون على الإسلام والمسلمين في بداية عهد « جوزيف بروزتيتو » ، في إطار خطة للقضاء على الأديان وتَرْسيخ العقيدة الماركسية .

واستمر الحال على هذا النحو حتى موت الرئيس « تيتو » وبداية ظُهور القوميين الصِّرب لِيُهَيْمِنُوا على الحزب الشيوعي اليوغسلافي ويُخططوا لإقامة صربيا الكبرى على أنقاض الاتحاد اليوغسلافي المنهار .

شرعت آليات الدعاية الصربية تشنُّ حملات موجهة ضد المسلمين في يوغسلافيا وضد الإسلام بصفة عامة ، لا من موقف « أيديولوجي » هذه المرة ، بل من موقف قومي عُنصري يهدف إلى استئصال المسلمين وتصفيتهم فكريًّا وجسديًّا ، وكانت الشخصية المحورية التي دارت حولها الحملات الصربية هي شخصية « علي عزت » ، فقد اتهمه الصِّرب بالدعوة إلى « الأصولية الإسلامية »(١) وبالتخطيط لإقامة دولة إسلامية في البوسنة كنقطة انطلاق للسيطرة على يوغسلافيا وأسلمة البلقان ، ثم الانقضاض على أوروبا كلها . ولا أحد يفهم كيف يمكن لعلي عزت وشعبه الصغير الأعزل أن يقوم بهذه الأعمال الخارقة !! ، ولكن عندما تكون الرسالة الإعلامية موجهة لجمهور جاهل متعصب قد تم برمجته بواسطة أجهزة إعلام تمرَّسَت بالتلاعب بعقول الجماهير ، فإن مثل هذا الجمهور لا يتوقف ليسأل نفسه هذا السؤال المنطقي .

ولقد لاحظ الصحفي البريطاني « ميشاجليني » هذه المُفَارقة وأَدهشه إفراد علي عزت

---

(١) يُستخدم اصطلاح « الأصولية » هنا بمفهومه الغربي ولكن لنا عليه تحفظ وتعليق سيتضح فيما بعد .

بكل هذا العداء والهجوم ، فتناول هذه النقطة في كتابه « سقوط يوغسلافيا »[٢] ، حيث قارن بين شخصيات رؤساء جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي قائلًا : « **إنه لو صَحَّ اتهام علي عزت بتهمة تنتمي إلى أكثر من عشرين سنة مَضَت ، لَصَحَّ اتهام جميع رؤساء جمهوريات يوغسلافيا الحاليين بِتُهم أكثر بَشَاعة ؛ فلقد كان بعضهم ستالينيًّا وبعضهم نازيًّا دمويًّا ، وكان أحدهم مراهقًا عابثًا . أما « سلوبودان ميلوسفيتش » (رئيس صربيا الحالي) فإنَّ « ميشاجليني » يخصه بوصف « المتعطش للدِّماء »** » ..

ثم يضيف : « **وكان هؤلاء جميعًا من الرفقاء الكبار في الحزب الشيوعي وقادته البارزين ، أما اليوم فهم الذين شرعوا يتقاتلون ويتصارعون فيما بينهم لتحطيم يوغسلافيا وتقسيمها فيما بينهم** » .

ويمضي ميشاجليني قائلًا : « أما علي عزت فهو الرئيس الوحيد الذي لم يكن شيوعيًّا ، وهو الرئيس الوحيد الذي يتمسك بالديمقراطية ، وهو الذي يُشرك معه في مجلس رئاسة الحكومة البوسنوية قادة من صرب البوسنة وكرواتها ، فقد آثر علي عزت أن تكون حكومة ائتلافية من المسلمين والأرثوذكس والكاثوليك ، رغم أنه كان يستطيع أن يؤلف حكومته من أعضاء حزبه المسلم الذي فاز بالأغلبية المطلقة في انتخابات حرة .

ويُؤَكِّد « ميشاجليني » أن عليّ عزت كان هو الرئيس الوحيد الذي دافع بِحَمَاس ملحوظ – أثناء المفاوضات التي أجريت عام ١٩٩١ – عن تحويل يوغسلافيا إلى « اتحاد كونفدرالي » .. وكان اقتراحه هذا – بشهادة مجموعة الدول الأوربية – هو الحلّ الوحيد لإخراج يوغسلافيا من كارثة الصِّدام المُسَلَّح والوصول بها إلى طريق السلام . إلا أن هذا الحل قد رفضه « ميلوسفيتش » بِصَلَف ، فقد كان اهتمام هذا الدكتاتور الدّموي مُرَكّزًا حول فكرة إقامة « صربيا الكبرى » تحت ستار ما سمّاه بالاتحاد اليوغسلافي الجديد .

---

(٢) انظر : « ميشاجليني » في كتابه « سقوط يوغسلافيا » :
GLENNY ، MICHA : The Fall of Yugoslavia .. London : Penguin Books،1992 . p 153 .

ولم يَحْظ هذا الاقتراح بما يستحقه من تدعيم من جانب رَئيسَي كرواتيا وسلوفينيا ؛ لأنهما كانا يُخَطِّطَان مع أطراف أُوربية أُخرى للانفصال ، فرارًا من القبضة الدموية العنصرية للقوميين الصِّرب الذين كانوا يتهيأون للانقضاض على أشلاء يوغسلافيا ووضعها تحت الهيمنة الصربية المطلقة .

لقد اتصل « ميشاجليني » بهؤلاء القادة جميعًا وأَدَار معهم حوارات طويلة وتَابَع مواقفهم وأعمالهم ، وتَعَرَّف على أخلاقهم وشخصياتهم عن قُرْب ، وفَحَصَهم بعين الصحفي الذكي المتمرس ، ومن ثَمَّ جاءت أحكامه عليهم مُطابقة للحقيقة والواقع ؛ فهو يرى أن « علي عزت » كان دائمًا ولا يزال يتميَّز بِحُسْن نواياه تجاه الآخرين كما يتميَّز بإنسانيته . وهي صفات لم يَلْمَحها « ميشاجليني » في أي شخصية قيادية من زعماء يوغسلافيا .

ولكن تمضي الحملة الدعائية الصربية الشرسة في تشويه الحقائق كاشفةً عن أهدافها العدوانية البعيدة ؛ فقد كان الجيش الصِّربي قبل العدوان على البوسنة بعدة أشهر يُرَدِّد أنشودة شعبية يتوعَّد فيها « عَلي عزت » بالقتل ؛ حيث تقول الأنشودة : « سَنَذْبَحُك يا عليّ عندما تقوم الحرب كما ذبح مِيلوس مُرَاد »[٣] .

فهم يُشَبِّهون علي عزت بالسلطان العثماني « مراد » الذي هزم الصِّرب في معركة كوسوفا ، وجاء ميلوس الصّربي ينحني أمام السلطان مسلمًا بالهزيمة ، فإذا به يغمد خنجره المسموم في صدر السلطان مراد فيقتله غدرًا وغِيلة .

ولعلنا نستطيع أن نقترب من فَهْم شخصية « علي عزت » الحقيقية إذا استطعنا أن نضع هذه الاتهامات « الـمُقَوْلبة » جانبًا ، وإذا استطعنا أن نستبعد من أذهاننا تلك التعصبات المنكرة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين ؛ ذلك لأن الرجل كان ضحيَّة سُوء فَهم عميق بسبب هذا كله .

لقد طَغت أنباء كارثة البوسنة في الإعلام العالمي طوال أربعة أعوام مضت ، ومع ذلك

---

(٣) انظر : صحيفة « أخبار المسلمين » الصادرة في لندن ٢٦ نوفمبر١٩٩٣م « MUSLIM NEWS » .

فنادرًا ما كنا نشاهد « علي عزت » في لقاء أو تصريح سواء في الصحافة الغربية أو في التلفاز ، فإذا ظهر على شاشة التلفاز في نشرة الأخبار – لحظات خاطفة – نلمح إنسانًا مثقلًا كأنه يحمل على عاتقه جبلًا من الهُموم . ولكننا مع الوقت لا نملك إلا أن نعجب ، كيف أنه لا يزال قويًّا متماسكًا لم يَتَحَطَّم . فقد عاش الكوارث التي تنقض على شعبه وتُمَزِّق وطنَه ، وهو نفسه كان محاصرًا في مدينة سراييفو بمدفعية عصابات « الشتنك » الصربية ، وقَنَّاصَتُهم يُحدقون بالمدينة على قمم الجبال المحيطة بها .

وقد تحولت المدينة العريقة الجميلة – مع طول الحصار – إلى جحيم ؛ تقطَّعت فيها شرايينُ الحياة ، فلا طعام ولا ماء ولا كهرباء ولا دواء ، وتحول « استاد » سراييفو الذي احتضن الألعاب الأوليمبية الشتوية يومًا ما إلى مقبرة كبرى تضم آلاف الضحايا من القصف العنيف المتواصل .

وكان علي عزت يأمل أن ينهض المجتمع الدَّولي بواجبه في إنقاذ شعبه من العدوان ، أو على الأقل يُرْفَع عنه حَظر التَّسلح المفروض عليه ، حتى يتمَكَّن من الدفاع المشروع عن نفسه ، ولكن طال انتظاره ولم يتحرك المجتمع الدولي ولم يسمح له بالتَّسَلُّح .

إنَّ علي عزت لم يَعِش فقط مأساة شعبه الدَّامية ولم تُحاصره مشاعر الإحباط المُتَّصِل بسبب المواقف الدولية المتخاذلة فقط ، وإنما تَعَرَّض بالإضافة إلى كل هذا لمحاولاتٍ استهدفت تحطيم شخصيته وتَمْزيق نسيجه النَّفسي وسَحْق صلابته وشُموخه واعتزازه بفكره ودينه وشعبه ، وللأسف الشديد لم تكن تأتيه هذه المحاولات من قِبَل أعدائه الظاهرين من الصِّرب فحسب ، وإنما جاءته أيضًا من خلال المفاوضات في أروقة قصر الأمم المتحدة في جنيف ، وبواسطة خبراء في المكر السياسي والدبلوماسي من أمثال البريطانيين : « لورد كارنجتون » و « لورد أوين » ، وهم أُنَاس جعلوا أكبر همهم أن يَروا « علي عزت » ينهار مُستسلمًا لضغوطهم فَيُوقِّع على وثيقة نهايته ونهاية دولته وتحويل شعبه إلى شراذم من اللاجئين المُشَرَّدين .

كانت وسائل الإعلام الغربية – رغم تَعَاطفها الملحوظ مع مأساة البوسنة – تَتَّخذ

موقفًا ثابتًا لا تحيد عنه من « علي عزت » بصفة خاصة ، رغم أنه هو رئيس الدولة التي وَقع عليها العدوان ، ومن ثَمَّ فهو صاحب القضية المركزية ، ولكن شاءت وسائل الإعلام أن يظل « علي عزت » غائبًا بصوته وصورته ورأيه تمامًا عن مجريات الأحداث ، فإذا ذكر اسمه فإنما يذكر مجردًا من لقبه الشرعي كرئيس لجمهورية البوسنة المُنتخب من قبل الشعب . فهو فقط – عندهم – مجرد زعيم مسلمي البوسنة .. أي مجرد قائد لطائفة من الطوائف الثلاث المتحاربة في البوسنة .. وهذا هو الانطباع الذي أرادت وسائل الإعلام أن تُثَبِّته في عقول المشاهدين عن شخصية « علي عزت » وعن قضية بلاده وشعبه باعتبارها قضية حرب أهلية لا قضية عدوان خارجي على شعب أعزل ، وتكتملُ دهشتنا للموقف العجيب الذي اتخذته وسائل الإعلام هذه نفسها من الصِّربي المتمرد « رادوفان كراجيتش » ، فقد دأبت وسائل الإعلام على إبرازه يوميًّا في نشراتها الإخبارية لتُسمع المشاهدين صوته وتُريهم صورته مُعَلِّقًا مرة على الأحداث برأيه .. ومُعتذرًا أحيانًا عن بعض التجاوزات الطفيفة التي يرتكبها بعض الجنود دون علم القادة الكبار كما يزعم .. ! مُدافعًا مرة ثالثة عن مليشياته العسكرية ، مُؤَكِّدًا أن لديه جنرالات على مستوًى عالٍ من الأخلاق والشرف !! مُتنَصِّلًا مرة أخرى من بعض الأحداث الدموية التي تستفز الرأي العام زعمًا أنها من عمل المسلمين أنفسهم ليستدروا بذلك عطف العالم عليهم .. بل أكثر من هذا عَقَد معه بعض مندوبي التلفاز لقاءات مُخَطَّطة وهو يتنقل كالطاووس في أروقة الكنيسة الأرثوذكسية التي يعتز بها ويتحدَّث عن الآثار البديعة التي تحتويها .. أو يتحدَّث عن عَرَاقة أَصْلِه ومَجْد أَجْداده .. أو يُلْقِي بعض قصائده الرومانسية (التي لا يعرف أحد مِنْ أين أتى بها ومَنْ تَرْجَمها له إلى اللغة الإنجليزية !) .. أو يتحدَّث عن الحقوق التاريخية للصِّرب في أرض البوسنة .. ويُرَدِّد شِعارات « الأُصولية الإسلامية » والمسلمين الدُّخلاء الذين احتلوا البوسنة وطَرَدوا منها الصرب – إلى آخره من هذه الخرافات والأكاذيب .

ويُلاحَظ أنَّ وسائل الإعلام كانت حريصة دائمًا على أن تخلع عليه لقب « الدكتور كراجيتش » .. ولم تذكر لنا أنه لقب مُزَيّف ، فالرجل لم يحصل على درجة الدكتوراه ،

وإنما هو طبيب أمراض نفسية كان ملحقًا بفريق كرة القدم .. ولم تذكر لنا وسائل الإعلام أن « كراجيتش » هذا ليس مواطنًا بُوسْنويًّا أَصيلًا ، وإنما هو صربي من جمهورية الجبل الأسود نزح منها إلى سراييفو بحثًا عن عمل مناسب لم يوفق في الحصول عليه في موطنه الأصلي(٤) .. ولم تَذْكُر لنا وسائل الإعلام أنه مَسْئول عن الجرائم الوَحْشية التي ارتكبتها مليشياته ضد المدنيين المسلمين العزل في أنحاء البوسنة .. ولم تَذْكر لنا أن وزير الخارجية الأمريكي السابق قد حدد اسمه مع مجموعة أخرى من مجرمي الحرب في يوغسلافيا وطالب عام ١٩٩٢ بضرورة مُثُولهم أمام محكمة دولية لمحاكمتهم على جرائمهم التي تُفتضح تفاصيلها البربرية يومًا بعد يوم ، ويطارده الآن المجتمع الدولي في محاولة للقبض عليه وتسليمه إلى محكمة مُجْرمي الحرب في « لاهاي »(٥) .

وقبل كل شيء لم تذكر لنا وسائل الإعلام شيئًا عن سر جاذبية هذا السَّفَّاح العنصري حتى يكون موضع اهتمامها البالغ في كل مناسبة وبلا مناسبة ! هنا يضع « مارك تومسون » يَدَنا على هذا السِّر حيث يرى أن هذا الدعيّ يفهم الرسالة التي يتطلبها الساسة الغربيون . وكان هو من جانبه حريصًا على إبرازها والتأكيد عليها في كل فرصة إعلامية متاحة :

« إنَّ اتفاقية وَقْف إطلاق النار بين الأطراف المُتَحَاربة في البوسنة لا يحترمها أحد(٦) ؛ لأن الكراهية العِرْقية عَميقة الجُذور بين الطوائف البوسنوية .. لا تحاولوا التدخل فأنتم لا تستطيعون عمل أي شيء إزاء هذا الصِّراع العِرْقي الحتمي إلاَّ أن تَقِفُوا بعيدًا عنه .. إنَّ من يَتَوَرَّط في هذا الصراع سيكون هدفًا للضَّرْب من جميع الأطراف .. ولن يخرج أحد من هُنا حيًّا » .

---

(٤) انظر : مارك تومسون في كتابه « بيت من ورق » .

THOMPSON ، MARK.A Paper House: The Ending of Yuguslavia. London: Vintage، 1992 . p 331 .

(٥) ثم إلقاء القبض عليه أخيرًا ، وبسبيل محاكمته .

(٦) سجَّلت الأمم المتحدة أن جميع انتهاكات وقف إطلاق النار بين الصِّرب والمسلمين كانت تأتي من الجانب الصِّربي دائمًا .

ويُعَلِّق (مارك تومسون) على ذلك بقوله : « كانت هذه الرسالة كالموسيقى الساحرة في أُذُن الساسة الغربيين الذين لا يريدون التَّدخل على أية حال »[٧] .

لقد أَدَان السَّاسة الأوربيون بشدة الهُجوم الصِّربي على سلوفينيا وكرواتيا وهَدَّدوا الصِّرب بالتَّدخل العسكري إذا لم يُوقِفُوا العدوان فأَوْقَفُوه . أما عندما أعلنت البوسنة استقلالها تَلَوَّن موقف الغربيين بلون جديد .. فهم يُبدون تعاطفهم مع مسلمي البوسنة الذي وَقَع عليهم العدوان الصِّربي من ناحية ، ولكنهم يَنْحون باللوم على الحكومة البوسنوية من ناحية أخرى ؛ لأنها جلبت على نفسها المشاكل .. وهم بذلك يُبَرِّرون للرأي العام سَبَب نُكُوصهم عن التدخل لإنهاء العدوان ..

ويُقَارن (مارك تومسون) هذا الموقف المُخْزِي بموقف المحقق المُتَحَيِّز الذي تسيطر عليه فكرة مُسْبَقة عن أية امرأة سيئة الحظ تتعرض للاغتصاب ؛ فهي في نظره مُذْنبة بشكل أو بآخر وأنها هي التي جَلَبت مُصيبتها على نفسها بنوعٍ من الإهمال ، فيما يعرف في المصطلح القانوني « المشاركة بالإِهمال »[٨] .

وهكذا يَتَكَشَّف سِرّ التَّوَافُق بين السِّياسات الغَرْبية تجاه البوسنة وبين مزاعم « كراجيتش » التي تروج لها وسائل الإعلام .

ويُؤَكِّد « مارك تومسون » رأيه في كراجيتش فيقول : « إنَّه كَذَّاب مَريض بالكَذب ، ولكنه يرى في نفسه مَسيح الثورة الصِّربية القومية .. إنه لا يُكِنّ أيّ شعور بالحب أو الانتماء إلى البوسنة .. فهو لا يرى فيها سوى عقبة في طريق تحقيق حلم صربيا الكبرى » .

وتَنَبَّأ (مارك تومسون) في أوائل التسعينيات بأنَّ هذا الرجل الشِّرير إذا أُتيحت له الفُرصة سوف يُحِيل البوسنة الجميلة إلى حطام وأنقاض ودخان ، وسيجعل من أشجارها الخضراء مجرد جُذُوع مُحترقة[٩] . وقد تحقَّقَت بالفعل توقعات (مارك تومسون) .

---

(٧) انظر : « مارك تومسون » ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

(٨) انظر : « المصدر نفسه » ، ص ٣٢٦ .

(٩) انظر : « مارك تومسون » ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

كانت هذه الشخصيات السياسية هي النَّماذج السياسية النَّكدة التي فُرِضَ على « علي عزت » أن يتعامل معها .. وكانت هذه الظروف المأساوية كلها جديرة بأن تحطم أَقوى الرِّجال ، ولكن علي عزت ظل صامدًا متماسكًا متوازن العقل صحيح النفس .. وهو أَمر يُثير الدَّهشة ويَبْعث على التساؤل . ولكن تزول دهشتنا إذا حاولنا أن نتعمق في سيرة حياة الرَّجل وفكره كما يتمثل في كتاباته ، وعلى الأخص كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » ، فهذا الكتاب يُمِدّنا برؤية داخلية كاشفة لشخصية مُؤَلِّفه وسِمَاته الفكرية والأخلاقية .

قَضَى « علي عزت » فترات طويلة من حياته وَرَاء قضبان السجون الشيوعية – كما سبق أَن أَشَرنا – لمجرد أنه مُسلم ملتزم متمسك بعقيدته يُدافع عن الفكر الإسلامي في مواجهة نظام استبدادي شمولي مُلْحد ، وأنه يدعو إلى نظام ديمقراطي(١٠) مُخالفًا بذلك دكتاتورية الحزب الواحد . ولم يكن « علي عزت » من النوع الذي يُؤْثر المُهَادنة والتَّخَفِّي على حِساب مَبَادئه أو حريته . بل فعل غيره أكثر من ذلك فأظهر الحماسة للماركسية حتى أصبح من قادة الحزب الشيوعي ، ولكن ما أن انهارت قبضة النظام حتى انكشفت حقيقته فعاد إلى طبيعته قوميًّا عدوانيًّا مثل الدكتاتور الصِّربي « سلوبودان ميلوسيفيتش » ، ولكن « علي عزت » رجل من نسيج إنساني مختلف .. فهو عاشق للحرية الإنسانية ويعتبرها أعظم هبة من الله ، بل يعتبرها أمانة من عند الله ومسئولية لا يمكن التفريط فيها . وسنرى أن فكرة الحرية هذه من المحاور الأساسية المهمَّة التي تدور عليها موضوعات كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » .

وقد عالج هذه الفكرة في أكثر من موضع بهذا الكتاب وانتهى من تحليلاته إلى أن النُّظُم الشمولية يستحيل استمرارها في الوجود ؛ لأنها تنظر إلى الإنسان نظرة أحادية الجانب مَقْصُورة على طبيعته المادية الحيوانية ، فتصطدم بذلك بأعمق ما في طبيعته وهو

---

(١٠) انظر : « نويل مالكوم » Malcolm. Noel. Bosnia: A Short History- London: Macmillan. 1994 . p. 208 .

حيث يقول : إن إحدى التُّهم الرئيسة التي وُجِّهت إلى « علي عزت » أنه يدعو إلى نظام ديمقراطي برلماني على النَّسق الغربي .

الجانب الروحي الإلهي فيه . وكأن « علي عزت » في ذلك الوقت المبكر كان يتنبأ بانهيار النظم الشيوعية قبل أن يبدأ الزلزال الذي اكتسحها ، على الأقل بعشر سنوات[١١] .

ويَكْشف « علي عزت » عن طبيعة العلاقة التي تربط بين السلطة المستبدة وبين نوعين من الناس يُسَمِّيهم « الأتباع والهراطقة »[١٢] ، فهناك علاقة تَوَافق وانسجام بين الأتباع الذين يعشقون التَّبعية والخُضُوع ، وبين السلطة التي تحب أن يكون لها أتباع مخلصون لا يسألونها وإنما يُصَفِّقون لها ويستحسنون .. أما الهراطقة فإنه يتحدث عنهم كأنه يصف نفسه فيقول : « إنهم أناس أشقياء يتطلعون دائمًا إلى شيء جديد .. قليلًا ما يتحدَّثون عن الخبز ولكنهم يتحدثون كثيرًا عن الحرية .. يتحدَّثون عن السلام قليلًا وعن الشخصية الإنسانية كثيرًا .. إنهم يرفضون فكرة أن الملك يمنحهم أجورهم .. ويعتقدون أنهم هم الذين يطعمون الملك .. هؤلاء هم الهراطقة الخارجون .. لا يُحبّون السلطة ولا تحبهم السلطة » . ثم يمضي قائلًا : « في الأديان يوقرُ الإمَّعات الأشخاص والسلطات والأوثان .. أما عُشَّاق الحرية فإنهم لا يُمَجِّدون إلا الله » .

وُلِد عاشق الحرية « علي عزت بيجوفيتش » سنة ١٩٢٥ م في مدينة « بوسنا كروبا » في شمال غرب البوسنة وقد أصبحت هذه المنطقة أسيرة الاحتلال الصِّربي الآن . واسم عائلته « بيجوفيتش » معناه الحرفي « ابن عزت بك » ، وكلمة « بك » لَقَب شَرَفِيّ مَوْروث من الامبراطورية العثمانية كان يُمْنَح لمن قدَّم خدمة مرموقة للدولة . و « علي عزت » من أُسرة مسلمة عريقة في تاريخ البوسنة ، تعلَّم في سراييفو والتحق بمدرسة تسمَّى « جمنازيوم » وهي مدرسة ثانوية كانت تَتَبَنَّى منهجًا أكاديميًّا على غِرار المناهج الألمانية .. ويتميَّز النظام المدرسي فيها بالدِّقة والصَّرامة .

---

(١١) انظر : علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب : ترجمة محمد يوسف عدس . ميونخ : مؤسسة بافاريا للنشر . والكويت : مجلة النور ، ١٩٩٤ . ص ٢٤٥ – ٢٤٩ .

(١٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

في ذلك الوقت كانت البوسنة والهرسك جُزءًا من مملكة تحكمها أسرة ليبرالية . ولم يكن التعليم الديني جزءًا من المناهج المدرسية . وكان « علي عزت » – وهو لا يزال شابًّا ناشئًا – واعيًا بأهمية أن يتعرَّف على دينه ويقرأ فيه قراءة مستفيضة ، فاتفق هو وبعض زملائه في المدرسة أن ينشئوا ناديًا مَدْرسيًّا للمناقشات الدينية سمُّوه « ملادي مسلماني » أي « الشبان المسلمين » .. وكثير من زملاء « علي عزت » وأصدقائه ينتمون إلى هذه الفترة المبكرة من حياته .

تطوَّرت جماعة « الشبان المسلمين » فيما بعد ، فلم تقتصر في نشاطها على الاجتماعات والمناقشات وإنما امتدت إلى أعمال تعليمية وخيرية ، وأنشئ بها قسم خاص بالفتيات المسلمات . واستطاعت هذه الجماعة – أَثناء الحرب العالمية الثانية – أن تُقَدِّم خدمات فَعَّالة في مجال إيواء اللاجئين ورعاية اليتامى والتخفيف من ويلات الحرب . وإلى جانب هذه الأنشطة تضمَّنت برامج الجماعة برنامجًا لِـ « بناء الشخصية » ، وكانت عضوية الجماعة تجتذب طُلاَبًا من المدرسة الثانوية ومن « جامعة سراييفو » . ومن الثَّابت أن اتجاهات الجماعة وتطورها نحو التكامل والنضوج كانت نتيجة سعيها المستمر لتحسين نفسها ، ومحاولة الاستفادة في عملها بالمعرفة التي تَوَصَّلت إليها من خلال تحليلاتها واجتهاداتها الخاصة ، إلى جانب تأثرها بأفكار أخرى جاء بها بعض الطلاب البوسنويين الذين تعلموا في جامعة الأزهر بالقاهرة ، واتَّصَلُوا بمنظمات إسلامية هناك تَعَلَّمُوا منها أن الإسلام إيمان وعمل .. دين ودنيا .. وأنه أسلوب حياة بقدر ما هو طريقة في التفكير .. وسنجد هذه الأفكار تتطور عند « علي عزت » في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » حيث يُعَالجها بمفهومه الخاص في إطار فلسفي(١٣) .

كانت مجموعة الشباب المتعلم « الدِّينامي » الملتزم بفكر الإسلام وأخلاقياته تحفزهم رغبة قوية لإيقاظ مجتمعهم وتخليص عقله من كثير من المعتقدات الخاطئة التي حُسِبَت على الدِّين ، ولكنها لا تستند على أَي أساس من القرآن أو السنة النبوية الصحيحة ،

(١٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

وهي معتقدات سَكَتَ عنها رجال الدِّين الرسميون أو سَاهَمُوا في ترويجها لقلة فقههم في الدين . وبسبب ذلك ولأسباب أخرى تتعلَّق بِعَجْزِهم عن مواجهة تطورات الحياة الحديثة بالفهم والمعالجة المستنيرة ، كانت صِلة « علي عزت » وصُحْبته بعلماءِ الدين الرَّسميين صلة محدودة يَشُوبها شيء من عدم الثقة .

ولكن تبيَّن للشبان المسلمين فيما بعد أن بَقاءهم واستمرار نشاطهم لن يتحقق إلا إذا كانت لهم مظلة رسمية تحميهم من مظنة أهل السُّوء والسلطان ، فاقتربوا من « جمعية العلماء » وشجَّعهم على ذلك الشيخ « قاسم دوبراشا » (الذي توفي سنة ١٩٧٩) . وظل « علي عزت » محتفظًا بعلاقة ذات طابع عملي « برجماتي » مع « جمعية العلماء » وإن كان لم يأمل من وَرَائها خيرًا كثيرًا ، خاصة أن الدولة في ظل النظام الشيوعي كانت تتدخل في اختيار رئيس الجمعية وتُرَاقب نشاطها وتضع لها أُطُرًا حديدية لا تتخطاها .

وقد انعكس هذا على فِكْر « علي عزت » في انتقاده لهذه المؤسسات حيث يقول : « إن كلًّا من الدِّين والثورة يُولدان في مخاض من الألم والمُعَاناة ، وتدوم حياة الدين والثورة بدوام النِّضال والجهاد .. حتى إذا تحققا يبدأ الموت يتسرَّب إليهما .. ذلك لأن الدين والثورة – في مرحلة تحققهما في الواقع العملي – يُقيمان لهذا الغرض مؤسسات .. وهذه المؤسسات هي نفسها التي تقضي عليهما في نهاية الأمر .. فالمؤسسات الرسمية لا هي ثورية ولا هي دينية »[١٤] ، أما جماعة « الشبان المسلمين » فكانت منظمة عفوية حيّة ظلت على مرِّ الأيام مجالًا متطورًا يتدرب فيها أجيال من الشباب المسلم وينمّون في إطارها قُدراتهم الفكرية والعملية .

التحق « علي عزت » بكلية القانون في جامعة سراييفو وظلَّ مستمرًّا في عضويته بلجنة الشبان المسلمين . وفي إبريل ١٩٤١م استولى جيش « هتلر » على يوغسلافيا فَأَحَلَّ فيها مكان الملكية جمهورية فاشية يحكمها الكروات . وكانت جمعية الشبان المسلمين تلتزم بسياسة خاصة تحرّم على أعضائها الالتحاق بحركة « الأستاشا النازية » الموالية لألمانيا

---

(١٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٤، ١١٥ .

الهتلرية . ولهذا السبب عندما تقدَّموا للسلطات الجديدة لتسجيل جمعيتهم رفضت السلطات طلبهم .

وتتضح حيوية هذه الجماعة في اتجاهها نحو تعميق فكرها ورغبة أعضائها في الانفتاح على الفكر العالمي ، فكانت لهم خطط منظمة لتعليم اللغات الأوربية ، وقد اشتملت قراءاتهم على مؤلفات « محمد أسد » في الإسلام باللغة الألمانية ضمن قراءات أخرى كثيرة . وكان من عَادَتهم أن يجتمعوا ليقرأوا معًا ما يجري على الساحة من تطورات في أوضاع العالم الإسلامي . ومن خلال كتابات « محمد أسد » عَرَفوا كثيرًا عن الحركة الإسلامية في باكستان ، وكانت تحمل في طياتها أملًا في وقت من الأوقات ، وقد أشار إليها « علي عزت » في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » وتعرَّض لجوانبها السَّلبية بالنقد مفصَّلًا في كتابه « الإعلان الإسلامي »[١٥] .

انتهت الحرب العالمية سنة ١٩٤٥ وخرج « جوزيف بروزتيتو » وحزبه من الحرب ليعلنوا سيطرتهم على السلطة ، ويُؤَسِّسوا النظام الشيوعي في يوغسلافيا .. وحُوكِم قادة المسلمين البارزون وأعدم كثير منهم . وتم اعتقال ألفين من أعضاء جماعة الشبان المسلمين ، فأُرسل عدد منهم إلى معسكرات العمل الشاق دون محاكمة ، وحُوكِم البعض الآخر مُحَاكمات صُورية ثم وضُعوا في السجون .

واختفى بقية أعضاء الجماعة تحت الأرض حيث أَصْدَروا صحيفة سِرِّية سَمَّوها « مجاهد » ، وسعى بعضهم للحصول على تدريبات عسكرية تحسُّبًا أن تقوم السلطات الشيوعية بتصفيات جسدية جديدة بين المسلمين . وفي سنة ١٩٤٩م انقضَّ عليهم « تيتو » مرة أخرى بقسوة أَشد . وليس واضحًا تمامًا إذا كان علي عزت قد اعتقل في التطهير الأول أو الثاني ، ولكن الثابت أنه ظلَّ مسجونًا حتى أُفرِج عنه سنة ١٩٥٤م وكان عمره في ذلك الوقت تسعة وعشرين عاما .

عمل « علي عزت » بعد خروجه من السّجن محاميًا متخصصًا في القانون التجاري

(١٥) انظر : علي عزت « الإعلان الإسلامي » ، الجزء الخاص بباكستان في الفصل الثالث .

لدى إحدى الشركات . وفي غضون ذلك نشأت بينه وبين « حسين دوزو » صداقة . وكان « حسين دوزو » قد تخرج في جامعة الأزهر وعيَّنَتْهُ الحكومة اليوغسلافية رئيسًا لجمعية العلماء . وكان حريصًا من جانبه على أن يُقيم حوارًا بين العلماء وبين المثقفين المسلمين . وقد أُتيح لعلي عزت من خلال هذه العلاقة أن يَنْشُر مقالاته في مجلة الجمعية المسمَّاه « تاكفين » خلال عقد الستينيات وأوائل عقد السبعينيات .

فتناول في مقالاته موضوعات في الثقافة والأخلاق والنهضة من منظور إسلامي ، مستخدمًا في مقالاته اسمًا مستعارًا يتكون من ثلاثة حروف (ل . س . ب) وهي الحروب الأولى من أسماء أبنائه (ليلى وسابينا وبكر) . وكان لهذا الانفتاح على جمعية العلماء أَهمية كبرى .. فقد استطاع إيصال فكره إلى خمسين ألف مسلم من قراء المجلة .

وفي سنة ١٩٨١م قام ابنه « بكر » بجمع سلسلة من مقالات أبيه في كُتَيِّب وضع له عنوانا هو « الإعلان الإسلامي » . وقد أثار هذا الكتاب ضجة إعلامية كبيرة في يوغسلافيا ، واستغل استغلالًا ظالمًا ضد مُؤَلِّفه ، وكان أداة اتخذها الصِّرب والكروات لتحريض الغرب عليه وعلى دولة البوسنة والهرسك بصفة عامة .

في أوائل الثمانينيات كان يُسيطر على يوغسلافيا مجموعة من غُلاة الشيوعيين والقوميين المُتَعَصِّبين هَالهم إِحياءُ الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية في البوسنة ، فأخذوا يُهَيِّئون المسرح لعمليات قمع تستهدف وقف نمو شعبية العقيدة الإسلامية بين السكان المسلمين[١٦] . فكان أول ما فعلوه أن جاءوا بشيوعي من بين المسلمين[١٧] هو « درويش شوسيتش » DARVIS SUSIC ، وشجعوه على الكتابة ضد الحركة الإسلامية في صحيفة تُسمَّى OSLOBODJENJE فاخترع حكاية مُلَفَّقة زعم فيها أن بعضًا من رجال الدِّين المسلمين كانوا يتعاونون مع عصابات الأستاشا (الكرواتية –

---

(١٦) انظر : « نويل مالكوم » المصدر السابق . ص ٢٠٨ .

(١٧) النسبة إلى الإسلام هنا مجرّد صفة قومية لمسلمي البوسنة تمييزًا لهم عن الكروات والصرب وإِلا فإن المسلمين ينحدرون من عناصر سلافية شأنهم في ذلك شأن الصِّرب والكروات .

الألمانية) النازية خلال الحرب العالمية الثانية . ولكن صحيفة (الجمعية الإسلامية) PREPOROD ردَّت عليه بهجوم عنيف فنَّدت فيه قصته الملفقة ، فجاء شيوعيون آخرون لِمُنَاصرته وتعزيز الحملة الدعائية التي بدأها .. من هؤلاء البروفسور « فؤاد محيتش » من جامعة سراييفو ، ثم دخل المعركة كبيرهم « حمدي بوجيراتش » HAMDIJA POZDERAC وهو أعلى قيادة سياسية في الحزب الشيوعي بالبوسنة فشنَّ سلسلة من الهجمات الخطابية على ما سمَّاه « الجامعة الإسلامية » . وفي غضون هذه الحملة الإعلامية الشرسة بدأت الإجراءات القمعية ضد الأنشطة الإسلامية وانعقدت محكمة « سراييفو » سنة ١٩٨٣ لمحاكمة ثلاثة عشر من المثقفين الإسلاميين اتهموا جميعًا بالتمرد والقيام بأعمال مضادة للثورة (والمقصود الشيوعية والنظام الشيوعي) ، وكان من بين المتهمين « علي عزت » وثلاثة أعضاء في جمعية الشبان المسلمين كانوا قد عارضوا هجوم الشيوعيين على الإسلام في بداية الحكم الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية ، فلم ينس النظام هذا الموقف وساقه تهمة ضدهم في المحاكمة ، ذلك إلى جانب اتهامهم بإحياء نشاط منظمة إرهابية (يقصد جمعية الشبان المسلمين) .

أما « علي عزت » فقد انفرد بتهمة أشد غلظة من الجميع ؛ حيث وُجِّهت إليه تهمة أنه دعا إلى إقامة نظام ديمقراطي على غرار الديمقراطية البرلمانية الغربية(١٨) . وكان أكبر دليل ضده هو نصُّ كتاب « الإعلان الإسلامي » ، الذي وصفه وكيل النائب العام بأنه « منفستو إقامة دولة إسلامية في البوسنة مقتصرة على المسلمين » .

أُجريت مُحاكمة صورية لعلي عزّت وصَحْبه سنة ١٩٨٣ ، وسُمِح لأصدقاء المتهمين وأسرهم بحضور الجلسة الأولى ثم استكملت المحاكمة بعد ذلك في جلسات سرية سريعة . ويذكر الذين حضروا الجلسة الأولى أن « علي عزت » قام للدفاع عن نفسه ، فلم يُنكر أنه مؤلّف كتاب « الإعلان الإسلامي » وأنه مسئول عن محتوياته ، وأن الكتاب لا يوجد فيه إشارة واحدة إلى إقامة دولة عرقية مقصورة على المسلمين في البوسنة كما يزعم

(١٨) انظر : « نويل مالكوم » ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٩) انظر : « نويل مالكوم » ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

ممثل الاتهام .. بل إن الكتاب ليس فيه أي ذكر للبوسنة أو يوغسلافيا على الإطلاق[١٩] . وأكد « علي عزت » في دفاعه أن الكتاب مَعْنيٌّ بمشكلات المسلمين بصفة عامة وموجّه إليهم .. وأنه من شأن المسلمين الخاص في البلاد التي يُشَكِّلون فيها الأغلبية العظمى من السُّكان أن يختاروا – إذا شاءوا – نظامًا إسلاميًّا للحكم ، ولا يَصحُّ عندئذ أن تتدخل الدولة الغربية ضد هذه الرغبة . غير أن المحكمة لم تلتفت إلى هذا الدفاع وأعلنت أحكامها (الجاهزة) بالسجن على المتهمين مددًا تتراوح بين خمسة إلى خمس عشرة سنة ، ثم خفضت إلى إحدى عشرة سنة بعد التَّظَلُّم .

ولكن علي عزت لم يقض هو وصحبه من هذه المدة سوى ستة أعوام فقط ، حيث استؤنفت المحاكمة مرة أخرى سنة ١٩٨٩ فبرأتهم المحكمة وردَّت إليهم اعتبارهم . كان ذلك بفضل جهود منظمة تسمى « منظمة التنسيق اليوغسلافي لحقوق الإنسان » ، فقد تبنَّت القضية وشكلت لجنة لتقصي الحقائق والاتصال بالشهود ، وانتهت إلى وضع تقرير مُفَصَّل أثبتت فيه الحقائق التالية :

أولًا : أن المحاكمة كانت مُحاكمة سياسية مُلَفَّقة تمت على نمط المحاكمات الستالينية المعروفة .

ثانيًا : أن تلفيق المحاكمة قد تم بواسطة عناصر كثيرة منها : التَّحقيق البوليسي بدلًا من التحقيق القضائي ، والحد من حقوق المتهمين في الدفاع عن أنفسهم ، وسرية المحاكمة ، وتشويش الرأي العام بشكل تام ، وتلفيق الأدلة ، وتزوير شهادة الشهود الذين اعترفوا بأنهم لُقِّنوا أقوالًا من قبل رجال الشرطة وتعرَّضوا لتهديدات إرهابية إذا لم يُدْلوا بهذه الأقوال أمام المحاكمة .

ثالثًا : أن الذين كانوا وراء المحاكمة هم « برنكو ميكوليتش » و « حمدي بوجيراتش » وهما رأس النظام في البوسنة في ذلك الوقت ، وكان المنظم المباشر لهذه المهزلة هو وزير الداخلية « دوشكو زجونيانين .. »[٢٠] .

(٢٠) انظر: محمد موفق الأرناؤوط في كتابه « الإسلام في يوغسلافيا » ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

عندما خرج « علي عزت » من السجن بدأت حياته صفحة جديدة ومرحلة جديدة من مراحل الجهاد . فقد كان دوره في المرحلة السابقة هو دور المفكر الثائر .. رَجُل الأخلاق والمواقف وداعية التَّحَرُّر والديمقراطية . ولكنه أصبح الآن أمام تَغَيرات جديدة تمر بوطنه وأمام مَخَاطر تلوح في الأفق تستهدف شعبه ، وكل ذلك يتطلّب دورًا قياديًّا سياسيًّا لمواجهة هذه المخاطر . لقد انهار الاتحاد السوفيتي واجتاح الزلزال أوربا الشرقية ، وتحققت توقعات « علي عزت » بانهيار النظم الماركسية الاستبدادية ، وبرزت من أنقاض هذه النظم نزعات قومية شرسة وتَعَصُّبات عرقية عدوانية كانت مكبوتة ، وظهر على مسرح السياسة اليوغسلافية شخصيات من كبار قادة الحزب الشيوعي فإذا بولائهم الحقيقي لا للمبادئ ولا ليوغسلافيا ، ولكن لمصالحهم الخاصة ولانتماءاتهم القومية الضيقة وميُولهم العنصرية « الفاشية » ، قادة أساليبهم انتهازية غوغائية ، تمرَّسوا خلال العمل الحزبي بالكذب والكيد والتآمر ، يتحدثون أمام الجماهير عن نظافة اليد وأيديهم ملوثة بدماء الأبرياء ، يُظْهِرون البراءة على شاشات التلفاز وفي الخفاء يُدَبّرون المجازر الوحشية ويُغَذُّون الحركات العنصرية والتطهير العرقي ، وفي هذا المناخ المضطرب صعد نجم « سلوبودان ميلوسيفيتش » رئيسًا لجمهورية صربيا ثم رئيسًا للاتحاد اليوغسلافي الجديد المزعوم ، بعد انضمام جمهورية الجبل الأسود والاستيلاء على « كُوسوفا » . كان رؤساء جمهوريات يوغسلافيا (سابقا) يجلسون معًا للتفاوض على شكل الاتحاد اليوغسلافي الجديد ، ولكن كان بعضهم يُضْمِر الانفصال مثل رئيسي كرواتيا وسلوفينيا ، أما « ميلوسيفيتش » فكان يتآمر ضد الجميع في سبيل إقامة دولة صربيا الكبرى .

ويَعْزُو « نويل مالكولم » انهيار يوغسلافيا إلى عاملين أساسيين ؛ أَوَّلهما : ظهور مثل هذه الشخصيات على المسرح السياسي ، وثانيهما : توجهات قادة الصرب وعلى رأسهم « ميلوسيفيتش » ، ففي غمار الأزمة الاقتصادية الخانقة التي أغرقت يوغسلافيا في الديون الخارجية شرع الصّرب يوجهون أموال الدولة لعلاج المشكلات الصناعية الخاصة بصربيا على حساب الجمهوريات الأخرى . وكانت هذه أكبر ضربة وجهت إلى يوغسلافيا وأدَّت إلى زعزعتها .. وأَشْعَرت الجميع بالصورة التي سيكون عليها هذا الاتحاد إذا استمر

قائما . فقد بدأت تظهر على السطح مخططات « صربيا الكبرى » تحت ستار « الاتحاد اليوغسلافي الجديد »[٢١] .

لم يكن إذن « المسلمون الأُصوليون » هم الذين يُهَدِّدون الوحدة في يوغسلافيا ، ولم يكن « علي عزت » وكتابه المُفْتَرى عليه هما الخطر الذي يُهَدّد يوغسلافيا ، فالخطر كامن في الأطماع القومية الصربية والرغبة المرضية في القوة والسلطة والتوسع على حساب الآخرين كما يمثله رجل عُنصري مثل « ميلوسيفيتش » ، وسنرى أن « علي عزت » المتهم « بالأُصولية والانفصالية » كان هو وحده الحريص على وحدة « يوغسلافيا » وقد سعى للحفاظ على إقامة وحدة فيها على أساس ديمقراطي جديد ، وكان مخلصًا في حرصه وسَعْيه ، وكان متحمسًا لذلك بشهادة المراقبين المحايدين[٢٢] . فقد كان « علي عزت » يدرك بثاقب فكره أن هناك أسبابًا موضوعية تجعله يخشى أن يؤدي تمزق يوغسلافيا إلى مصادمات قومية دامية بين الصّرب والكروات مما سيكون له أخطر الأثر على التركيبة القومية في البوسنة نفسها ، حيث يمتزج المسلمون والصّرب والكروات في نسيج دولة البوسنة ويتداخلون جميعًا في أنحائها . وأمام هذه المخاطر المتوقعة رأى « علي عزت » ضرورة أن يكون للمسلمين دور في محاولة إيقاف تدهور الأوضاع في يوغسلافيا والعمل على منع التفجر العرقي من الانطلاق . ولم يكن يرى في القيادات الشيوعية البوسنوية من هو مؤهل لقيادة المسلمين في هذا الطريق ؛ لأنهم كانوا من نفس طينة زملائهم في بلجراد وزغرب انتهازيين لا خلاق لهم . وكان المسلمون من ناحية أخرى يتطلعون إلى عهد جديد بعيدًا عن هيمنة القيادات القديمة التي تعاونت مع النظام السابق ، وساهمت في تجفيف منابع عقيدتهم وإلغاء هويتهم . فأنشأ علي عزت « حزب العمل الديمقراطي » وخاض به انتخابات البوسنة فهزم به الحزب الشيوعي وغيره من الأحزاب الأخرى ، وتولَّى رئاسة جمهورية البوسنة فهزم به الحزب الشيوعي وغيره من

---

(٢١) انظر : « نويل مالكوم » ، المصدر نفسه .

(٢٢) انظر : « نويل مالكوم » ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

وانظر أيضًا : « ميشا جليني » في كتابه « سقوط يوغسلافيا » ، ص ١٥٣ .

الأحزاب الأخرى ، وتولَّى رئاسة جمهورية البوسنة في نوفمبر ١٩٩٠م . في ذلك الوقت كان التوتر قد بلغ أشده بين صربيا من ناحية وبين سلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى لدرجة أن « ميلوسيفيتش » كان قد فرض ضرائب على البضائع المستوردة من الجمهوريتين في أكتوبر من السنة نفسها . واستطاع « ميلوسيفيتش » أن يضع يده على قَدْر كبير من ميزانية يوغسلافيا أنفقه على صربيا وحدها . وهكذا في الوقت الذي كان يُعلن فيه تمسكه بالاتحاد اليوغسلافي ويُهَدّد كل من يعمل على تغيير صيغة هذا الاتحاد إلى صيغة أخرى أضعف منها . في الوقت نفسه كان « ميلوسيفيتش » يؤكد بعمله تخريب دستور الاتحاد ؛ فقد ألغى مجلس « كوسوفا » كما ألغى تمثيلها في مجلس جمهورية الاتحاد اليوغسلافي في يونيه ١٩٩٠[٢٣] . علمًا بأنه لم يكن في ذلك الوقت يملك هذه الصلاحية ، ولم يكن رئيسًا لمجلس اتحاد الجمهوريات ، بل إنه تحدّى رئيس المجلس وأعلن في ١٩ مارس ١٩٩١ أن صربيا لن تخضع بعد اليوم لمجلس اتحاد الجمهوريات ، وذلك لأن رئيس الاتحاد رفض قبول طلبه بفرض حالة الطوارئ لقمع مظاهرات الطلبة التي خرجت تعارضه وتهتف بسقوطه . وقام « ميلوسيفيتش » بتصعيد تحدياته ضد كرواتيا والبوسنة ، حيث قام بتحريض « كرايينا » (وهي جيب صربي في داخل كرواتيا) على التمرد ضد حكومة كرواتيا وأمدهم بالسلاح . وأَوْعَز إلى عملية « رادوفان كراجيتش » في البوسنة ، فأعلن حزبه في مايو ١٩٩١ أن المناطق المجاورة لكرايينا في شمال البوسنة سوف تنفصل عن البوسنة لتكوِّن مع « كرايينا » جمهوريةً صربيةً مستقلة[٢٤] .

وإذن فلم يكن « ميلوسيفيتش » معنيًّا على الإطلاق بوحدة يوغسلافيا ، وإنما كان يُخَطّط لإقامة صربيا الكبرى التي تهيمن على الجميع . وكانت هذه هي الأسباب الحقيقية وراء انهيار الوحدة اليوغسلافية وتخوف الجمهوريات الأخرى من البقاء في اتِّحاد مزيف تحكمه دكتاتورية صربية .

---

(٢٣) انظر : « نويل مالكوم » ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ ، كانت كوسوفا من قبل معتبرة وحدة سياسية مستقلَّة .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

ومن ثمَّ وضع « علي عزت » مشروعًا بحلّ وسط يُنهي الأزمة ويمنعُ تَفَجُّرَ الموقف المتدهورِ ، واستطاع أن يقنع « جليجوروف » رئيس جمهورية مقدونيا بالوقوف إلى جانب هذا المشروع ، حيث تقدما به في اجتماع رؤساء جمهوريات يوغسلافيا سنة ١٩٩١م .

ويتضمَّن المشروع النقاط التالية :

أولًا : أن تتحد جمهوريتا الصرب والجبل الأسود في اتحاد فيدرالي خاص بهما .

ثانيًا : أن تتحد جمهوريتا كرواتيا وسلوفينيا في اتحاد كونفدرالي خاص بهما .

ثالثًا : أن تتحد جمهوريتا البوسنة ومقدونيا في إطار اتحادي يتفقان على صيغته فيما بعد .

رابعًا : إيجاد إطار يوغسلافي موحد يضم هذه الاتحادات الثلاثة بحيث تتمتع جميع الجمهوريات فيه بالسيادة والاستقلال بطريقة متكافئة .

وبذلك يضمن المشروع بقاء الكيان اليوغسلافي ويحقق رغبات الجمهوريات فيه بدرجة من الاستقلال والسيادة تُرْضي الجميع .. وقد حَظِيَ هذا المشروع بتأييد المجموعة الأوربية .

ويُعَلّق « ميشا جليني » على هذا قائلًا : « لقد كانت خطة « علي عزت » و « جليجوروف » هي الحل الوحيد لأزمة يوغسلافيا التي كان يمكن أن تنهي الصراع المشتعل بطريقة سلمية ، ولكن (ميلوسيفيتش) رَفَضَها بِصَلَف من أول وهلة ودون أي مناقشة ، كما أنها لم تَحْظ بما كانت تستحقه من اهتمام وتأييد من جانب (توجمان) رئيس كرواتيا ، ولا من جانب (كوتشان) رئيس سلوفينيا »[٢٥] .

كانت أخطاء هؤلاء الرؤساء الثلاثة وطُموحاتهم القومية بالإضافة إلى تعطش « ميلوسيفيتش » خاصة إلى سفك الدماء والهيمنة ، كانت هي الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى انهيار يوغسلافيا سريعًا ، وهي التي جلبت الكارثة على البوسنة التي دفع المسلمون دون غيرهم ثمنها غاليًا . ولم يكن « علي عزت بيجوفيتش » (المسلم

---

(٢٥) انظر : « ميشا جليني » ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

الأُصولي !) هو السبب في كل هذه الكوارث والحروب ، ولكنه كان هو وشعبه ضحيتها البريئة . إنَّ « علي عزت » الذي يؤمن بإمكانية التعايش بين جميع المواطنين رغم اختلاف دياناتهم وقومياتهم في إطار وحدة وطنية قائمة على الديمقراطية والحرية الدينية ، هو الذي رفض تقسيم البوسنة على أساس ديني عِرْقي ، والجبابرة الذين اتهموه « بالأصُولية »(٢٦) والتعصب الديني والتطرف هم الذين حاولوا بعد ذلك إرغامه على قبول دولة مقتصرة على المسلمين مطهرة عرقيًّا ودينيًّا ، لقد حارب الصّرب المسلمين واستولوا على ٧٠ % من أراضي البوسنة ودبَّروا لهم المذابح الوحشية ومعسكرات الإبادة والاغتصاب لكي يستأصلوا شأفتهم من البوسنة ، فلما أَخفقوا في ذلك لجئوا إلى تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات على أساس ديني ؛ دولة صربية أرثوذكسية ، ودولة كرواتية كاثوليكية ودولة مسلمة ، ولا ينبغي أن تغيب هذه الحقائق الدامغة عن نظرنا أبدًا .

في يوم ١٦ يونيه ١٩٩٣م ، في قصر الأمم المتحدة بجنيف وجد رئيس صربيا ورئيس كرواتيا أن خطتهما في تقسيم البوسنة قد تبنتها الأمم المتحدة فيما يُعرف باسم (خطة فانس – أوين) . وهي خطة تُكافئ المُعْتدي على عُدوانه ، وتكرس الاستيلاء على الأرض بالقوة ، وتُقِرُّ عمليات اقتلاع السكان المسلمين من أراضيهم وممتلكاتهم

(٢٦) « الأصولية » ترجمة للمصطلح الغربي Fundamentalism ولهذا المصطلح تاريخه ومبرراته في إطاره الثقافي الغربي وليس له ما يُوازيه في إطار الثقافة الإسلامية ، وليس هنا مجال للتفصيل في ذلك . وأكتفى بأن أُشِير إلى أن الوصف بالأصولية يستدعي إلى ذهن القارئ أو السامع النُّفور والكراهية . وقد أصبح هذا الوصف في الآونة الأخيرة مقصورًا على الإسلام والمسلمين بل تحول إلى قالب واسع مائع ليشمل كل ما له صفة إسلامية حتى ولو كان اسم شخص ، فالشيوعيون الملحدون في البوسنة يُطْلق عليهم الصرب صفة الأُصوليين لمجرد أن لهم أسماء مسلمة ، وتعليم أطفال المسلمين أداء الصلاة (أُصولية إسلامية) . ومما يُؤْسف له حقًّا أن كثرة من المثقفين أو أدعياء الثقافة قد استعاروا هذا المصطلح وأقحموه إقحامًا على اللغة والثقافة العربيتين فأصابوهما بالتلوث » ؛ ذلك لأن الأصل والأصالة وكل مشتقات الكلمة سواء في اللغة العربية الفصحى أو العامية تشير إلى ما هو أصيل وجميل في الفكر والأخلاق والسلوك . ولكن ابتليت مجتمعاتنا العربية بطائفة من الكتاب الحمقى أو الحاقدين لا يعنيهم نقاء اللغة الشاعرة ، ولا صفاء الهوية الثقافية لشعوبهم وإنما يهرولون خلف كل بدعة غربية حتى ولو جاءت من صناديق القمامة .

وحقوقهم الإنسانية المشروعة[٢٧] .

ولكن « علي عزت » رفض هذا التقسيم وغادر الاجتماع متوجهًا إلى « كوبنهاجن » ، حيث كان وزراء خارجية المجموعة الأوربية مجتمعين فقال لهم : « الآن وأنتم لا تريدون أن تتحملوا مسئولية ردّ العدوان على دولة البوسنة فهل تسمح دولكم بأن نشتري السلاح للدفاع عما تبقى من أرض البوسنة ؟ » فنظر الوزراء بعضهم إلى بعض وقالوا كلامًا خاليًا من المعنى كعادة السياسيين المحترفين عندما يُواجهون أسئلة محرجة .

ثم خرج « نلز هلفج بيترس » وزير خارجية الدنمارك ورئيس الاجتماع ليفسر الموقف أمام الصحفيين حيث قال لهم : « لقد قلنا لوفد حكومة البوسنة إننا نرى أن رفع الحظر عن الأسلحة ليس حلًّا سلميًّا .. ولكن ستعمل المجموعة الأوربية ما في وسعها لمساعدة المسلمين للحصول على تسوية سلمية[٢٨] .

ويُعلِّق « إد فوليامي » على هذه العبارة المطاطة قائلًا : « ولم يعرف أحد منا ماذا يعني الوزير بالتسوية السِّلمية »[٢٩] .

ولكن « علي عزت » عرف حينذاك أنه لا أمل للمسلمين في إنصاف يأتي من دول أوربا ولا من الأمم المتحدة التي تُهيمن عليها هذه الدول ، فاعتزل المفاوضات العقيمة وعاد إلى « سراييفو » وقد أيقن أن المسلمين يقفون وَحْدَهم في معركة حياة أو موت ، وعليهم أن يشقوا طريقهم بما يتوافر لديهم من سلاح مهما كان قليلًا . ويستمر مسلسل المأساة البوسنوية ، ويبقى « علي عزت » في وسط العاصفة مع شعبه الأعزل صامدًا مجاهدًا محتسبًا ، لا أمل إلا في وجه الله ونصر من عنده .

وليس هنا مجال للإفاضة في تطورات الحرب البوسنوية فقد خصصنا لذلك كتابًا

---

(٢٧) انظر : « إدْفوليامي »
Ed Voliami. Seasons in hel.. London : Simon and Schuster . 1994 . p. 229 .

(٢٨) انظر : « صحيفة الجارديان البريطانية » « the Gurdian » ، عدد ٧ أغسطس ١٩٩٢ .

(٢٩) انظر : إد فوليامي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

منفصلًا – كما سبق أن أشرنا – وإنما يعنينا هنا أن نؤكد على الحقائق التالية :

أولًا : أنه قد بدا واضحًا أن الافتراءات الموجهة إلى « علي عزت » بالتعصُّب أو ما يُسَمُّونه « الأُصولية الإسلامية » لا أساس لها من الصحة ، وإنما يأتي التعصب والإرهاب والعنصرية من الأطراف الأخرى المعادية لتوجهات علي عزت في الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الشعوب .

ثانيًا : أن « علي عزت » لا يسعى لإقامة دولة في البوسنة مقتصرة على المسلمين خالية من الأديان والعناصر الأخرى من الصِّرب والكروات . فمثل هذه الدولة العنصرية لا وجُود لها في كتابه « الإعلان الإسلامي » كما زعموا ، ولا في برنامجه الحزبي الذي خاض به الانتخابات واختاره شعب البوسنة على أساس ما وَرَد فيه رئيسًا لجمهورية البوسنة والهرسك ، ولم يَرِد في أي أثر فكري آخر لـ « علي عزت » شيء عن دولة إسلامية عرقية في البوسنة .

ثالثًا : أن « علي عزت » كان ولا يزال يُسَاند بكل قوة إقامة دولة مدنية ديمقراطية في البوسنة يشترك فيها عناصر السكان الثلاثة الرئيسة من المسلمين والصرب والكروات على قدم المساواة ، ويُؤَيِّده في هذا الاتجاه كثرة من مُفَكِّري صرب البوسنة وكرواتها ممن رفضوا الانضمام إلى المتمردين المنشقين من أصحاب النزعات العنصرية الدموية .

رابعًا : أن الخطر على جمهوريات يوغسلافيا ليس كما يدَّعى الصرب آتٍ من الإسلام والمسلمين ، وإنما يكمن الخطر الحقيقي – لا على جمهوريات يوغسلافيا وحدها بل على منطقة البلقان كلها وعلى أوربا نفسها – في تلك النزعات القومية العنصرية المتطرفة ، وفي الأفكار الدموية التي تتغذى على الأساطير والأحقاد التي يحاول النفخ فيها وإحياءها قادة مَرْضى مُتَعَطِّشون للسيطرة وسفك الدماء أمثال « سلوبودان ميلوسيفيتش » رئيس جمهورية صربيا ، وعميليه « رادوفان كراجيتش » الرئيس المزعوم لجمهورية صرب البوسنة ، و « بانكو ملادتش » قائد العصابات الصربية ، وهما الآن مطلوبان للمثول أمام محكمة جرائم الحرب الدولية لمحاكمتهما .

۞ ۞ ۞ ۞

الإعلان الإسلامي المفترى عليه

« الإعلان الإسلامي » – كما سبق أن أشرنا – هو الكتاب الذي أثار ضجة إعلامية كبرى في يوغسلافيا ترددت صَدَاها في أنحاء أوربا كلها ، وبسبب هذا الكتاب حُوكم « علي عزت » وَزُجَّ به في السجن ، ورغم إعادة المحاكمة وسقوط التهم التي وجهت إلى « علي عزت » إلا أن هذا الكتاب ظل سيفًا مُصْلَتًا لا على رقبة مُؤَلّفه فحسب بل على المسلمين في البوسنة وعلى الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام

واستمرت الحملات الإعلامية الصربية تتصاعد ضد علي عزت لترسم له صورة مقولبة[٣٠] باعتباره « آية الله الأبيض الملعون »[٣١] الذي ظهر في قلب أوربا المسيحية . ولترويج هذه الصورة أُخِذ الكتاب وأُجريت على نَصّه تعديلات وأضيفت إليه عبارات وكلمات لم تكن موجودة في الأصل . ثم وُزِّع بحماس في بلجراد وزغرب كدليل على دعوته للجهاد ، والجهاد عندهم معناه إعلان « الحرب المقدسة على المسيحية » .

وتسرَّب الكتاب خارج يوغسلافيا فالتقطته جماعات نشطة ، وقامت بترجمته إلى اللغات الأوربية المختلفة في محاولة مشبوهة لإثارة جو من الذُّعر بين المسيحيين ، حيث ربطت بين مؤلفه وبين بعض المراكز الإسلامية في العالم وبخاصة إيران[٣٢] .

ويؤكّد الصحفي البريطاني « إد فوليامي » أن الكتاب قد تعرض نَصُّه للتعديل أو

---

(٣٠) « القولبة » ترجمة للمصطلح الإنجليزي Stereotyping وهي في الأصل نوع من التصنيف ولكنه تصنيف سلبي بمعنى التأكيد فقط على الصفات السلبية .. ووظيفته أنه يساعد على تكوين صورة عقلية أواستثارة موقف عاطفي غير قابل للمراجعة عن شخص أو عرق أو قضية أو حادثة .. وتعتمد القولبة على تعميمات متحيّزة غير دقيقة شديدة التبسيط والمبالغة وعادة ما تستخدمها وسائل الإعلام تستخف بها عقول الجماهير .

(٣١) المقصود « آية الله الخميني » ، فهو وإن كان رفيع المقام عند المسلمين الشيعة إلا أن صورته المقولبة في الغرب بالغة البشاعة .

(٣٢) انظر : « إد فوليامي » ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

بالأحرى « التشويه » .

والمقصود بهذا التشويه أن تتوافق محتويات الكتاب مع الصورة الإعلامية « المُقَوْلَبة » عن صاحبه ، وذلك لحبك سيناريو التآمر الإسلامي على الغرب المسيحي .

وكانت هذه أول مرة أُصَادف فيها خلال قراءاتي كاتبًا غربيًا يشير إلى ما لحق بكتاب « الإعلان الإسلامي » من تحريف . ثم ازداد يقيني بمسألة التحريف بعد الاطِّلاع على شواهد أخرى ؛ فقد أشار « هـ . ت . نوريس » في كتابه « الإسلام في البلقان » إلى أن الكتاب الذي اطلع عليه في لغته الأصلية يبلغ نحو خمسين صفحة ، بينما تقترب نسخ أخرى من ثمانين صفحة[٣٣] .

ولقد أُتيحت لي فرصة أن أطلع على نسخة من الطبعة الإنجليزية المحرّفة التي تتداولها بعض الجماعات في لندن ، ووجدت أنها مُزوَّدة بمقدمة تنطوي على أفكار مسمومة وإيحاءات خطيرة .

ولم يشأ صاحب المقدمة أن يُعْلن عن اسمه . والنسخة نفسها خالية من بيانات النشر ، فاسم الناشر مجهول وكذا سنة النشر ومكانه ، ومثل هذه الكتب الغفل التي تظهر في الأسواق بين حين وآخر تذكرنا بالمطبوعات التي تروجها أجهزة المخابرات لإشاعة أفكار أو معلومات كاذبة لأغراض دعائية معينة .

تقول المقدمة : « من الواضح أن مهمَّة المسلمين المقدسة كما يراها « علي عزت » هي تطبيق الموقف الإسلامي على العالم ... » ، وفي موقع آخر من المقدمة نقرأ : « ولا ننسى أن الرسالة البليغة للخوميني كانت « لا غرب ولا شرق .. الإسلام هو الحق » »[٣٤] .

---

(٣٣) انظر : هـ . ت نوريس. Norris, H.T. Islam in the Balkans. London : Hurst. 1993 . p. 256.

(٣٤) لاحظ لعبة القولبة بذكر اسم الخوميني – أما الشعار فقد كانت تردده الجماهير الإيرانية في مستهل الثورة الإسلامية . وهو عكس للشعار الذي صحب التوسع الغربي نحو الشرق واستبعاده وكان الشعار (West (and the rest والمقصود أن السيادة للغرب وحضارته أما الثقافات الأخرى فهي متخلفة ولتذهب إلى الجحيم .

ويمضي صاحب المقدمة المجهول فيعلق قائلًا : « وكانت هذه الفكرة هي التي عبر عنها « علي عزت » في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » ، ثم ترجمها بلغة سياسية عملية في كتابه « الإعلان الإسلامي » ، وذلك بقصد إقامة الدولة الإسلامية والتوسع فيها لتحقيق طوبيا على كوكب الأرض » .

ثم ينتقل الكاتب المجهول في مقدمته لتوجيه اللوم إلى الدول الكبرى التي اعترفت بدولة البوسنة ومكَّنَتها – على حد قوله – من الانضمام إلى الأمم المتحدة فيقول : « في الوقت الذي تكسب فيه دولة البوسنة والهرسك الاعتراف الدولي لا يزال يقف على رأسها (زعيم مسلم) هو « علي عزت بيجوفيتش » الذي استطاع أن يحصل على دَعْم أكبر القوى العالمية المؤثرة .. هذه القوى هي نفسها التي يصفها « علي عزت » في كتابه بأنها « قوى الوثنية الكبرى في العالم » .

تختم المقدمة بما يُشبه قرع الطبول في نهاية سيمفونية عنيفة فتقول مُحَذِّرة : « إنه لمن التهاون المفرط وعدم الاكتراث بالمسئولية أن تقرأ هذا (المنفستو الإسلامي) كنوع من القصص الخيالي ! » ، ولا ينسى الكاتب الذكي في ثنايا مقدمته أن يذكرنا بأن المؤلف (يقصد علي عزت) لم يتراجع عن المعتقدات التي ضمنها في كتاب « الإعلان الإسلامي » ، وذلك لكي يغلق الطريق تمامًا على أن فكرة قد تخطر على بال القارئ بأن الرجل ربما كان هكذا في السبعينيات ولعله تاب الآن ونحن في التسعينيات .. !

وهكذا رأينا نصًّا يُحرَّف في بلجراد ثم يُفسَّر في لندن بمعرفة كاتب مجهول ، وذلك

(٣٥) أغلب اعتقادي أن دوائر غربية معينة لا تستطيع استساغة كتابات « علي عزت » عن الإسلام لأنه بمنطقه القويِّ استطاع أن يرتقي بالفكرة الإسلامية وبالنظام الإسلامي فوق الإيديولُوجيات والأنظمة الغربية ، في حين أن هذه الدوائر تحب أن تحتفظ بنظرة هابطة عن الإسلام معادية له . وتأتي المفارقة هنا : فالذي يؤكد لها هذه النظرة الهابطة تروج له بضاعته وتتكلف في حمايته كل مشقة وعنت كما تفعل مع سلمان رشدي ، الذي تتسابق الحكومات والمنظمات الغربية في احتضانه ويتظاهر رؤساء الدول بتكريمه بدعوى الدفاع عن حرية الفكر ، والجميع يعلمون أنه أداة خسيسة لتحقير الإسلام والمسلمين ، أما « علي عزت » الذي ينصف الإسلام ويُعْلي من قدره بين الأفكار العالمية . فهو – في نظرهم – الخميني الأبيض الملعون في قلب أوربا المسيحية ! .

لكي يركب صاحبه على قالب « خُميني »(٣٥) يستنكره الفكر الغربي ويدينه بالعداء والعدوانية تجاه الحضارة الغربية .

ويصف الكتاب بأنه « المنفستو الإسلامي » ليذكر القراء بشيء آخر كَرِيه عندهم وهو « المنفستو الشيوعي » والدلالة هنا واضحة .

ويَمْضي الكاتب المجهول فَيُسَطِّح الأفكار الثرية المبدعة التي عالجها « علي عزت » في كتابه الفذ « الإسلام بين الشرق والغرب » ويختزلها إلى شعار كانت تردده الجماهير في بداية الثورة الإسلامية في إيران ، ولاشك أن إقحام هذا الكتاب بالذات في غير سياقه يؤكّد هدف التشويه المتعمد للكتاب في ذهن القارئ .

وينسب الكاتب الكَذُوب إلى « علي عزت » أنه « يهدف إلى تطبيق الموقف الإسلامي على العالم » والتعبير فيه غموض ولعله يقصد قَهْر العالم على تبني الأيديولوجية الإسلامية مثلما حاول الغرب فَرْض ثقافته وتدمير ثقافات الشعوب في العالم الثالث . ولكن شيئًا من هذا لم يَرِد في كتاب « الإعلان الإسلامي » ولا في كتاب آخر لـ « علي عزت » .

وأخيرًا ؛ تنسب المقدمة إلى « علي عزت » أنه وَصَف القوى العالمية الكبرى بأنها قوى الوثنية ، ولكن هذا الوصف أيضًا لم يرد في « الإعلان الإسلامي » ولا في أي أثر فكري آخر لعلي عزت .. ! وهكذا يتّضح الهدف الخبيث من المقدمة المشبوهة للكاتب المجهول .

فماذا يقول الكُتّاب والمفكرون الغربيون المنصفون عن كتاب « الإعلان الإسلامي » ؟

يقول « هاري ثيرلول نوريس » الأستاذ بجامعة لندن : « إنَّ هذا الكتاب أَبعد ما يكون عن الأُصولية فهو يحدّد موقف المسلمين من العالم المسيحي تحديدًا منطقيًّا واضحًا حيث يقول « علي عزت » : « نحن بالنسبة للمسيحية نفرق بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة .. أما تعاليم المسيح فهي وحيٌ من الله لَحقَ به تحريف في بعض مواضعه ، وأما الكنيسة – وقد أصبحت مؤسسة قائمة على نظَام كهنوتي هرمي ذي مراتب ودرجات – فقد أصبحت بتنظيمها وسياساتها وثَرَواتها ومصالحها لا ضد الإسلام فحسب ، بل ضد

المسيح نفسه .. وإن أي شخص يُراد منه أن يحدّد موقفه تجاه المسيحية فمن حقّه أن يسأل : هل المقصود بالسؤال تعاليم المسيح أم محاكم التفتيش ؟ ذلك لأن الكنيسة خلال تاريخها كانت تتأرجح دائمًا بين هذين القطبين .. فكلما اقتربت من التعبير عن تعاليم الإنجيل الأخلاقية كلما كانت بعيدة عن محاكم التفتيش .. ومن ثم أقرب إلى الإسلام .. وإننا نقدر الاتجاهات الجديدة التي أعلنها مؤخرًا مؤتمر « الفاتيكان » ؛ حيث نرى فيها اقترابًا من المعتقدات المسيحية الأصيلة .. ومن الممكن - إذا أراد المسيحيون - أن يشهد المستقبل فرصة للتفاهم والتعاون بين الديانتين العظيمتين لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية بصفة عامة خلافا لما كان يحدث في الماضي من معارك بدافع من التعصب والصراع الأحمق »(٣٦) .

أما « نويل مالكوم »(٣٧) فقد خصَّصَ عددًا من الصفحات في كتابه (البوسنة : تاريخ موجز) لعرض وتحليل كتاب « الإعلان الإسلامي » ، دحض فيه الاتهامات الموجهة إليه بمنطق قويّ واضح حيث يقول : « إنَّ هذا الكتاب بَحْث عام في السياسة والإسلام ، يتَّجِه إلى العالم الإسلامي بصفة عامة فليس مُخصصًا للبوسنة وليس فيه أي ذكر لها على الإطلاق .. ويبدأ « علي عزت » بعنصرين أساسيين هما المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية .. وهو يؤكد أنه لا يمكن إقامة حكم إسلامي إلا ببناء مجتمع إسلامي كأساس يقوم عليه هذا الحكم .. وهذا المجتمع بدوره لا يمكن أن يتوافر إلا إذا كانت الأغلبية المطلقة من السكان مسلمين مخلصين لإسلامهم ممارسين لشعائره ملتزمين بأخلاقياته » وبدون هذه الأغلبية يتقلَّص النظام الإسلامي إلى مجرد قوة أو سلطة عارية .. ومن السهل حينئذ أن يتحول إلى نظام استبدادي .

ويعلق « مالكوم » على ذلك قائلًا : « إنَّ هذا الشرط يُلغي تمامًا فكرة إقامة حكومة إسلامية في البوسنة حيث إن المسلمين فيها لايشكلون الأغلبية ، بل هم أقلية (٤٥ ٪ من

---

(٣٦) انظر : هـ . ت . نوريس ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

(٣٧) انظر : « نويل مالكوم » في كتابه عن البوسنة ، ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٣ .

السكان) . ثم يمضي « مالكوم » قائلًا : « إنَّ القضايا التي يناقشها « علي عزت » في معظم الكتاب تتعلق بطبيعة النظام السياسي الإسلامي ولا تنطبق على حالة البوسنة .. وعندما يقول « علي عزت » مثلًا : « لا يُوجد سلام ولا تعايش بين العقيدة الإسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللا إسلامية (وهي عبارة طالما اقتبسها الصّربيون في دعايتهم السياسية المضادة) ، عندما يقول هذا فإنه يُشير إلى دول بها مجتمع إسلامي .. وحجته أن هذا المجتمع لن يقبل أن تُفرض عليه مؤسسات « ضد إسلامية » .. ثم يمضى قائلًا : « ولا يكاد يجد القارئ في هذا الكتاب شيئًا ينطبق على الوضع السياسي للبوسنة سوى فقرة واحدة هي : « إن الأقليات المسلمة في مجتمعات غير إسلامية – طالما أنهم يتمتعون بالحرية الدينية وبالحياة والنمو الطبيعيين – فإنهم لابد أن يكونوا مخلصين ملتزمين بتنفيذ واجباتهم تجاه هذه المجتمعات ، إلا في حالة الإساءة إلى الإسلام والمسلمين » .

وينتقل « مالكوم » ليناقش تهمة « الأصولية » فيقول : « إنَّ بعض العبارات التي سِيقت في هذا الكتاب وَوُصِفت بأنها (أُصولية) سنجد أنها عبارات تقليدية ثابتة في العقيدة الإسلامية لا يمكن لمسلم مُخلص لدينه أن يُنكرها » .

فقد كتب « علي عزت » : « لابد للدولة الإسلامية أن تحرّم الخمر والدّعارة والإباحية » ، وحجته في هذا أن الإسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الدينية الخاصة ولكنه طريقة حياة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية .. ثم إنه يُؤَكّد على أن الأخوّة بين المؤمنين بالعقيدة الإسلامية (أو الأمة) تتجاوز الحدود القومية .. وليس في هذا كله ما يبرر الوصف بالأصولية .. بل إن مصطلح (الأُصولية) نفسه مصطلح مائع وانطباعي (سهل القولبة) .. ولا يستخدمه أساتذة الدراسات الإسلامية الذين يعنيهم أن يُفَرّقوا بين أنواع من الحركات الإسلامية التي

---

(٣٨) انظر : « جون إسبوزيتو »

Esposito, john L. The Islamic threat : Myth or reality ? New York : Oxford University Press, 1992. PP. 203-212.

هذا المؤلف نموذج للأكاديمي الذي يشير إليه « مالكوم » وقد عالج هذا التنوع في فكر الحركات الإسلامية باستفاضة في كتابه وعلى الأخص في الصفحات المذكورة .

تتدرّج في موقفها بين المحافظة والاعتدال والتطرف والعداء للحداثة[٣٨] .

ولكننا نجد السياسيين والصحفيين يستخدمون (الأصولية) لتجمع عددًا من الصفات من بينها الجمود والتطرف.

أما الزعم بأن إقامة السلطة الإسلامية كغاية يبرر استخدام أي وسيلة ممكنة[٣٩] فإن « علي عزت » يرفض بوضوح تام هذا الاعتقاد .. بل يُنَدّد بفكرة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة بناء المجتمع الإسلامي من فوق .. وحجته الأساسية هي أن المجتمع الإسلامي لا يُمكن بناؤه إلا في مجتمع غالبيته العظمى من المسلمين وأن هذا البناء لا يتم إلا من خلال عملية طويلة من التربية الدينية والاقتناع الأخلاقي » ، ويمضي « مالكوم » في تبديد شبهة الأُصولية عن فِكْر « علي عزت » فيقول : « وتُطْلق الأصولية بطريقة مائعة على فِكْر « علي عزت » بأنه شديد العداء للثقافة والنُّظم السياسية الغربية .. وذلك بسبب انتقاده لأسلوب العَلْمنة المرتجلة والمتعسفة لتركيا في عهد « كمال أتاتورك » .. وهو أسلوب تَبَنَّاه نظام « كمال أتاتورك » على أساس (أن كل ما هو إسلامي فهو رَجْعي مُتَخَلّف ثقافيًا ، وبدَائي) .. وبسبب تنديده بأولئك الذين يَدْعُون أنفسهم بالتقدميين المتغربين ودُعاة الحداثة الذين يُطبّقون سياسة مشابهة لسياسة « كمال أتاتورك » في بلاد أخرى بالعالم الإسلامي .. ويَرفض « مالكوم » أن يكون هذا النقد من جانب « علي عزت » مُبرّرًا لاتهامه بالأُصولية .. ذلك لأن موقف « علي عزت » العام على حد قول « مالكوم » لا يَنْطوي بالتأكيد على رَفْض للحضارة الغربية حيث يؤكّد « أن الإسلام من بدايته قد أَخَذَ بدون تَعَصُّب العلوم وجملة المعارف الإنسانية التي وَرِثها من الحضارات السابقة .. ونحن لا نرى لماذا يتخذ الإسلام موقفًا مختلفًا من إنجازات الحضارة الأوربية الأمريكية التي يتَّصل بها اتصالًا وثيقًا » .

ويلْفت « مالكوم » نظرنا في دفاعه عن فكر « علي عزت » إلى معالجاته لهذه القضايا

(٣٩) انظر : رأي « علي عزت » في هذه النقطة في كتابه « الإعلان الإسلامي » تحت عنوان : « الغاية لا تبرر الوسيلة » حيث يهاجم الوسائل المكيافيلية هجومًا كاسحًا . « **المترجم** » .

في مصادر أخرى حيث يقول : « إنَّ هذه القضايا قد قام « علي عزت » بمعالجتها معالجة أكمل في كتاب أهم هو كتاب « الإسلام بين الشرق والغرب » ، وهو الكتاب الذي حاول فيه أن يقدّم الإسلام كنوعٍ من مُركَّب روحي وفكري لا يتجافى مع قيم الحضارة والأدب الغربيين .. ووصف المسيحية بأنها وحدة بين دين عظيم وأخلاق عظيمة .. ويحتوي على جزء خاص يمجّد الفلسفة الأنجلو سكسونية والثقافة الأنجلو سكسونية وكذلك تقاليد الاشتراكية الديمقراطية(٤٠) . وينتهي « نويل مالكوم » بحكمه على فكر « علي عزت » حيث يقول بكل وضوح : « ولا يمكن لأُصولي أن يكتب مثل هذا الكلام » .

إنَّ الحملة الإعلامية على كتاب « علي عزت » وصاحبه قد استخدمت فيها الأساليب الدعائية الحديثة بذكاء ماكر وعلى نطاقٍ واسع لتشويه قضية البوسنة ، ثم للانقضاض على المسلمين لإبادتهم ، بعد أن يكون المناخ في المنطقة وفي أوربا كلها قد تشيَّع بالخوف والضغينة والعداء ، حتى لا يتعاطف أحد مع الضحية عند ذبحها أو يهب لنجدتها .. وهذا ما حَدَث بالفعل .. بل رأينا متطوعين من روسيا وغيرها من دول أوربا الشرقية التحقوا بقوات الشتنك الصِّربية الإرهابية للمشاركة في استئصال المسلمين .

لقد أُشِيع مناخ عام أُحْكِمَت حَلَقَاتُه ضد الكتاب وصاحبه وضد الإسلام والمسلمين .. وأصبح من العسير على أكثر الناس إنصافًا أن يحاول التَّصدي لهذا التيار الإعلامي الكاسح وأن يكشف عن أوجه الشطط والزيف فيه .. وقد عرضنا – فيما سبق – لبعض المحاولات التي قام بها أكاديميون وصحفيون أجهدوا أنفسهم بحثًا عن الحقيقة وسط رُكَام الأكاذيب . ورأينا كيف أن الدكتور « نويل مالكوم » قد اعترف في مقدمة كتابه عن البوسنة بمدى الصُّعوبة التي واجهته وهو يشق طريقه بحثًا عن الحقيقة(٤١) في قضية البوسنة .

---

(٤٠) انظر هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب « الإسلام بين الشرق والغرب » لعلي عزت عن المسيحية : ص ٢٨٩ ، وعن الفكر الأنجلو سكسوني وعن الديمقراطية الاشتراكية انظر : الفصل الحادي عشر « الطريق الثالث خارج الإسلام » من ص ٣٧١ إلى ٣٨٩ .

(٤١) انظر : « نويل مالكوم » المصدر السابق . المقدمة .

ولعل أخطر ما في « الصور المُقَوْلَبة » أنها تتسلل إلى أقلام الكتّاب وإلى عقولهم اللاواعية بطريقة تلقائية نتيجة تشبع المناخ الفكري بها .. فهذا مثلًا « ميشاجليني » يُنْصِف « علي عزت » ؛ لأنه التقى به وتعرّف عليه عن قُرْب وتابع مواقفه وتصريحاته فلم يأخذ عليه شيئًا يشينه ، بل أثنى على استقامة شخصيته وحُسْن طباعه وأخلاقه وهي خِصالٌ ينْدُر توافرها في رجال السياسة . ولكنه - وهو في سِياق عرضه لاتهامات الصرب والكروات « لعلي عزت » بالتخطيط لإقامة دولة إسلامية في البوسنة - ذكر أن « علي عزت » قد بيّن خطوط بناء هذه الدولة الإسلامية في كتابه دون أن يوضح - كما فعل غيره من الباحثين المدققين - أن الأمر لا يتعلق بالبوسنة ، بل اكتفى بتبرئة « علي عزت » من « الأُصولية » على أساس أن هذا الوضع شيء مضى من زمن بعيد وأن الرجل قد تخلى عن أُصوليته(٤٢) على حد زعمه .

ولاشك أن قوة تأثير الصورة المقولبة عن الإسلام والمسلمين تستند إلى الخلفية الثقافية الشائعة في وسط ما .

وهذه الخلفية متوافرة في العالم الغربي المسيحي ولها جذورها التاريخية المعروفة ، وقد أشار « إدوارد سعيد » في كتابه عن « الاستشراق »(٤٣) إلى عشرات الألوف من الكتب التي أُلِّفت في الغرب على مدى القرون حتى اليوم تؤكد هذه النزعات المعادية للإسلام والمسلمين . ولكن ما شأن العرب والمسلمين الذين يُفْتَرض فيهم أنهم ينتمون إلى ثقافة مختلفة ، أقل ما تُوصَف به أنها غير معادية للإسلام والمسلمين . ألم يكن من وَاجبهم أن يتحرّوا حقيقة هذه الصور المُقَوْلَبة قبل أن تنفذ إلى وسائل إعلامهم وتتردد فيها .. ؟ الواقع يؤكد أن هذا التحري لم يحدث ، بل إنَّ نفرًا من الكتاب والمثقفين

---

(٤٢) انظر : « ميشا جليني » ، سقوط يوغسلافيا ، ص ١٥٣ .

« Glenny , misha » The Fall of Yugoslavia .. London Panguin Books 1 1992 .

(٤٣) انظر : إدوارد سعيد ،

Said; , Edward. Orientalism . London : Routledge kegan Paul ; 1978 .

العرب تبنَّوا الموقف الغربي المعادي للإسلام والمسلمين ، فشاعت على أقلامهم تُهْمة « الأصولية » التي أَخَذُوا يُلْصِقُونها بكل حركة أو فكر إسلامي باعتباره تطرفًا وتعصُّبًا وإرهابًا أو مُسانِدًا للإرهاب . وهم بهذا الموقف إنما يمثلون غلاة المتعصبين من المفكرين الغربيين ، غير ملتفتين إلى وجود تيار آخر من المفكرين والباحثين الغربيين المنصفين ، لهم رؤية أخرى فيها تفصيل واعتدال وإنصاف تستند إلى التحليل المنطقي للواقع ، ولا تنجرف مع التعصبات والأفكار المسبقة ، والتشويه المتعمد للحقائق ، وقد ذكرنا أمثلة على هذا التيار في كتابات : « جون ل . إسبوزيتو » ، « نويل مالكوم » ، « ميشاجليني » ، « هـ . ت . نوريس » و « توماس أرنولد » . فهؤلاء مُفَكِّرون احترموا الحقيقة واحترموا أنفسهم واتخذوا الموقف الذي يمليه عليهم الضَّمير العلمي رغم التيارات المضادة ذات القوة والسلطان في بيئتهم الفكرية .

ومهما يكن الأمر فإنَّ السؤال يبقى : كيف تَسَلَّلت « الصُّور المقولبة » عن كتاب « الإعلان الإسلامي » وعن مؤلفه المفترى عليهما إلى الإعلام العربي ؟

إنَّ أول صحيفة عربية – فيما أعلم – قد تعرَّضت لكتاب « الإعلان الإسلامي » كانت صحيفة « الحياة » التي تصدر في لندن . فقد نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ ملخصًا للكتاب من إعداد « جميل روفائيل » مندوب « الحياة » في بلجراد ، تحت عنوان : « البيان الإسلامي . ، .. نهج علي عزت بيجوفيتش في إقامة الدولة الإسلامية الموحدة »[٤٤] . ومن الواضح أن هذا الملخص يعكس فهم « بلجراد » للنَّص .. وبه أخطاء فكرية قد ترجع إلى ضعف الترجمة أو إلى الاقتباس المباشر من تفسيرات النَّص المحرف الذي روّج له الصِّربيون في عاصمتهم « بلجراد » ،

---

(٤٤) لاحظ أن عبارة « الدولة الإسلامية الموحدة » منقولة بالحرف من حديث الدكتور « ميرولوب إيفتش » الصربي المتعصّب في مقابلة صحفية نشرتها مجلة « دوجا » الصربية الصادرة في بلجراد ، عدد ٩ في ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ علما بأن هذه العبارة بنصها أو بمعناها لم ترد في كتاب « الإعلان الإسلامي » ولا في أي كتابات أخرى لـ « علي عزت » . وتفاصيل ذلك واردة في كتاب عن البوسنة (تحت النشر) .

ولا أظن أن المندوب الذي ترجم ولا المحرر الذي تناول النص قد كلفا نفسيهما بأي بحث أو جهد للتحقق من صحة النص ونِسْبَته إلى صاحبه ، ولعل هذه كانت البداية الخاطئة التي قُدم بها كتاب « الإعلان الإسلامي » إلى الصحافة العربية ، ومنه تسربت « الصورة المقولبة » عن علي عزت وكتاباته بصفة عامة ، فما أن يَرِد ذكر اسمه حتى تلتحق به لازمة محتمة « الدولة الإسلامية الموحدة » ، سواء بمناسبة أو بغَير مناسبة .

قرأت في عدد « الأهرام » أول مارس ١٩٩٤ تعليقًا شيقًا للكاتب اللامع أنيس منصور على كتاب « الإسلام بين الشرق والغرب » ويتميَّز التعليق برشاقة الأسلوب وحيوية التعبير والكلمات القليلة الكاشفة ، وهي خصائص يتمتع بها أنيس منصور في كتاباته ، إنه يُبدي إعجابًا واضحًا بالكتاب وصاحبه .. ومع ذلك وجدت في سياق التعليق عبارة يصف بها هدف المؤلف تقول : « وله هدف هو إقامة دولة إسلامية » ، واندهشت لإقحام هذه العبارة في سياق لا يبررها وعلى كتاب لا يُنَاسبها ، خاصة أن التعليق نفسه يلخص موضوع الكتاب في آخر عبارة وردت به تقول : « إن قراءة هذا الكتاب مُتعة فلسفية ونَشوة إسلامية .. فأنت أمام بطل إسلامي عظيم الاحترام .. وهو من بين مئات ملايين المسلمين يستحق لقب المفكر الإسلامي أو المتفلسف الإسلامي » ، وإنه لكذلك ، وأَصَحّ ما يُوصف به موضوع الكتاب أنه فلسفة إسلامية . فمن أين جاءت عبارة « وله هدف هو إقامة الدولة الإسلامية » ؟ إنني أستبعد أن يكون كاتبها هو أنيس منصور نفسه ، وأرجح أنها إضافة تبرع بها محرر ذكي أو جامع حروف مثقف ، انزلقت على أصابعه « صورة مُقَوْلَبَة » فألصقها بالتعليق دون وعي منه .

ومهما يكن الأمر فإنَّ ما ذكرناه لا يعبّر إلا عن أهون الجوانب فيما يتعلق بتأثير الصورة المقولبة على الصحافة العربية ، فقد يجتمع لدى الكاتب مع تأثره بالقولبة الغربية المعادية سُوء قَصْد أَوْ نَزعة خبيثة ، فنراه يُقْحم رأيه الخاص في قضية معينة في سياق لا يبرر هذا الرأي ولا يَتَوافق معه .

سُقْت لهذا أمثلة صارخة الدلالة في بعض كتاباتي السابقة ، منها نموذج لكاتب صحفي يقدّم عَرْضًا لكتاب « هـ . ت . نوريس » « الإسلام في البلقان » . أباح هذا الصحفي المُغْرض

لنفسه أن يستغل ما يقرب من ربع مساحة مقاله للهجوم على شعب البوسنة المسلم ، فيُشَكِّك في إسلامه ومواقفه وقضيته ويَسْخَر من المسلمين الذين يتعاطفون معه في أنحاء العالم . ولكي يخدع القارئ لم يشأ أن يعلن أن هذا هو رأيه الشخصي ، بل تركه يتوهم أن هذا كلام « هـ . ت . نوريس » مؤلِّف الكتاب ، معتمدًا على حقيقة أن القُرَّاء العرب لن يهتموا بقراءة الكتاب مكتفين بهذا العرض المشوه لمحتواه .

ولما كنت أعرف عن « نوريس » أنه باحث موضوعي مُدَقِّق ، وأنه ارتحل وعاش في منطقة البلقان وأَجَاد لغتها واستوعب تاريخها وثقافتها وعاش مشكلاتها وتفاعل مع قضاياها – استبعدت أن يحمله الهوى إلى هذا المنزلق . فلما جئت بكتابه واطلعت عليه تملكتني دهشة شديدة ؛ لأن الذي كتبه الصحفي لا وجود له في الكتاب ولا يمكن استنتاجه من كلام مؤلفه . ولقد رأينا في هذه المقدمة كيف أن « نوريس » كان من أكثر الكُتاب إنصافًا لفكر « علي عزت » ودفاعًا عن كتابه « الإعلان الإسلاميّ » . ولكنها جرأة غريبة يستخف بها بعض الصحفيين العرب عقول الناس ، وهي دليل على انعدام الأمانة عند بعض الكتّاب الذين يحملهم الهوى على تجاوز الحقيقة ويستمرئون التلاعب بعقول القُرَّاء[٤٥] .

(٤٥) النموذج المُشَار إليه نُشر في صحيفة الحياة الصادرة في لندن يوم ٩ يناير سنة ١٩٩٤ ، وصاحب التعليق هو الصحفي « سباستيان أشر » .

حول موضوع الكتاب

يشتمل كتاب « الإعلان الإسلامي » على مقدمة وثلاثة فصول وخلاصة .

يُحَدِّد المؤلف في مقدمته الجمهور الذي يتوجه إليه بالخطاب ، ويقرِّر أن الكتاب لا يُخاطب غير المسلمين ولا الذين يتشككون في تميز الإسلام عن النظم أو المدارس الفكرية الأخرى ، إنما يخاطب المسلمين الذين يدركون حقيقة انتمائهم للإسلام ، والذين تحدثهم قلوبهم حديثًا صريحًا واضحًا عن طبيعة وَلائهم الإسلامي ، ومُهِمَّة الكتاب بعد ذلك أنه يكشف لهم النتائج التي تترتب على هذا الموقف الذي التزموا به .

في الفصل الأول يُشَخِّص المؤلف ظاهرة التَّخلف بين الشعوب الإسلامية ، وفي الفصل الثاني يتناول طبيعة المشروع الإسلام أو النظام الإسلامي الذي يدعو إليه ويُوضِّح أبعاده وعناصره ، وفي الفصل الثالث : يُعالج المشكلات الأساسية التي تواجه النظام الإسلامي .

يرى « علي عزت » أن النهضة الإسلامية تَصْطدم بنوعين متضادين من الناس ولكن بينهما عنصر مشترك وهما : المحافظون الجامدون على الأشكال القديمة ، ودُعَاة الحداثة الذين يَتَطَّلعون إلى الأشكال الأجنبية . أما العنصر المشترك بينهما فهو النظرة القاصرة أحادية الجانب إلى الإسلام ، حيث يعتبر أنه مجرد دين ، بمعنى أنه مقتصر على الحياة الروحية للفرد ، ولا شأن له بتنظيم الحياة الدنيا .

ويُلاحظ « علي عزت » أن دُعاة الحداثة هم الذين يهيمنون على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة في البلاد المسلمة ، ويكشف لنا عن سِمة تميّزهم وتُيَسِّر لنا التعرف عليهم ؛ فهم يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه ، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به ، لقد جلبوا إلى أوطانهم أفكارًا ثورية أجنبية و « برامج إصلاح ومذاهب إنقاذ موصوفة لعلاج كل المشكلات » ، فإذا تأمّلنا مليًّا نجد – لدهشتنا – نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها .

ويُقَارن « علي عزت » بين فلسفتي الإصلاح التي تبنتها كل من اليابان وتركيا « تحت نظام كمال أتاتورك » ، ويكشف لنا عن الأسباب التي جعلت اليابان تنجح وتنطلق إلى قمة المجتمعات المتقدمة ، بينما انحطَّت تركيا إلى دولة مُتَخَلّفة من دول العالم الثالث . ويُنَبّه – في هذا المجال – إلى حقيقة ما تُعَانيه الشعوب اليوم بِسَيْرها على النموذج التركي في الإصلاح ، حيث ضَاعَت هويّتها وفقدت استقلالها وأصبحت عالة على الدعم السياسي والاقتصادي لدول الغرب .

وينتهي « علي عزت » إلى نظرية بالغة الأهمية ؛ حيث يرى أن جميع نجاحاتنا وإخفاقاتنا في الأخلاق والسياسة إنما هي مُجَرَّد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التي طبقناه بها في الحياة : « لقد كان ضَعْف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوبًا دائمًا بانحطاطهم وانحطاط مُؤَسَّسَاتهم السياسية والاجتماعية ، وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يُؤَكِّد هذا التَّطَابق ، كأن هذا التطابق هو المصير الذي لا مَنَاص منه للشعوب المسلمة ، وأحد قوانين التاريخ الإسلامي نفسه » .

ويَرْتَبط بهذه النظرية تأكيد « علي عزت » أن القرآن « هو الفكرة المركزية في الإيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية » ، ويرى أن إشكالية القرآن في المجتمعات المسلمة ترجع إلى أن هذه المجتمعات تتعلق به تعلُّقًا عاطفيًّا ، ولكنها لا تستطيع تطبيقه في حياتها ، وهنا يَكْمُن الفِصَام بين الكلمة والفِعل في العالم المسلم ، وينسب ظواهر الفساد والانحراف والسطحية والتنطع والتخلف جميعًا إلى هذا التناقض الأساسي بين حماسنا المُشْتَعل تجاه القرآن وبين الإهمال الكامل لمبادئه في الممارسات العملية .

ويرى « علي عزت » أن أَسوأ الملامح في أوضاع المسلمين العامة يتمثل في تلك الفجوة المأساوية بين النخبة المهيمنة وبين الشعوب في البلاد المسلمة .. وأن افتقاد التوافق بين عناصر الفكر والقيادة من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى « يُخِلّ بالشرط الأول لأيّ إنجاز عظيم » . ويُرْجِع السَّلبية واللامبالاة لدى جماهير المسلمين إلى وجود هذه الفجوة . ويرى أن أي برامج إصلاح لن يُكْتَب لها النجاح أبدًا إذا كانت مُعادية للإسلام مُتَجاهلة لمشاعر الجماهير المسلمة . وستجد النخبة من دُعاة الحداثة « أنهم

يَضْربون بُرءُوسهم في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البُسَطاء الذين يُشَكِّلون الغالبية العظمى من الأمة » .

ويؤكد « علي عزت » أن النظام الإسلامي لا يمكن إقامته بدون مجتمع إسلامي كشرط أساسي ، وإلا تحوّل هذا النظام إلى عُنف وقَهْر واستبداد .

« المجتمع الإسلامي لا يُبنى ولا يتم إصلاحه بالقانون أو باسم القانون ، ولكن باسم « الله » وعن طريق تعليم الإنسان المسلم وتربيته » .

ويلْفِت « علي عزت » النَّظر إلى ظاهرة مُتَفَشِّية في المجتمعات المسلمة ؛ حيث تتكاثر القوانين وتَتَشَعَّب وتتعقد ، هنا يُحَذِّرنا بأن هذه علامة أكيدة على وجود شيء بالغ الفساد في المجتمع ، ويرى في هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء بتعليم الناس وتربيتهم ؛ ذلك لأنه « عندما يتجاوز الفساد في بيئة ما حَدًّا معيَّنًا يصبح القانون عقيمًا » .

يقوم النظام الإسلامي – كما يراه « علي عزت » – على ثلاثة عناصر لا يمكن الاستغناء عنها وهي : الاستقلال والحرية والديمقراطية ، والاستقلال الحقيقي – عنده – هو استقلال روحي وفكري ، وعلامة على أن شعبًا قد وَجَدَ هويته واكتشف قوته الذاتية .

ويُنَبِّه علي عزت إلى حقيقة مهمَّة ، وهي أنه كلما ابتعد نظام ما عن الإسلام قلّ دعمُ الشعب له ، ومن ثم يجد النظام نفسه مضطرًا للبحث عن دعم خارجي ، فالتبعية التي تَغْرَق فيها هذه النُّظم ليست إلا نتيجة مُباشرة لتوجهاتها المعادية للإسلام ، وتتفاقم الأمور عندما تشعر هذه النُّظم بالمقاومة والعداء من جانب الشعب ، فتلجأ إلى العُنف لتمرير سياساتها بالقوة .

ويُحَذِّر علي عزت من الانزلاق نحو وهم « الغاية تبرّر الوسيلة » ، فقد أَدَّى هذا المبدأ إلى جرائم لا حَصْر لها ، ولا أحد يَمْلك الحق في تشويه وجه الإسلام أو الإساءة إلى النضال الشريف باستعمال العُنف الجامح ، فالغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دَنيئة .

ويُعَارض معارضة شديدة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة أن يقوم النظام بعد ذلك

بناء المؤسسات المناسبة وبتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية لبناء مجتمع إسلامي ، فهو يرى أن هذا « مجرد غواية » ، وأن التاريخ لا يذكر لنا أي ثورة حقيقية جاءت عن طريق السُّلطة ولكن عن طريق التربية ، وكانت معنية في جوهرها بالدعوة الأخلاقية .

التَّرتيب الصحيح – عند علي عزت – أن يقوم المجتمع الإسلامي أولًا ثم يأتي بعده النظام الإسلامي وليس العكس .

وفي مجال الوحدة الإسلامية يؤكّد « علي عزت » أن الإسلام بطبيعته وروحه أَقْدَر على توحيد الدول الإسلامية برباط أقوى من روابط المصلحة التي تُوَحّد الدول الأوربية ؛ فالإسلام لا يُقيم الوحدة بين المسلمين على المصالح فقد ، بل يجمع إليها عوامل الوحدة الروحية والمبادئ الأخلاقية والرِّسالة الإنسانية في إقامة العدل بين الناس .. وتلك هي « الأمة الإسلامية » ، وليس معنى ذلك بالضرورة « الدولة الإسلامية العالمية الواحدة » كما فَهم البعض خطأً ، أو كما أَرَاد البعضُ أن يُوهمنا بأن هذا هو ما يدعو إليه « علي عزت » في كتابه « الإعلان الإسلامي »(٤٦) .

لقد عالج علي عزت هذه النُّقطة بوضوح تام في الفصل الثالث تحت عنوان « الجامعة الإسلامية والحركة القومية » ، حيث تحدَّث عن « وحدة إسلامية كبرى » ويُفَسِّر لنا « علي عزت » طبيعة هذه الوحدة فيقول : « ... نحن نعتقد أنه لا يُوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأمور وإلى الواقعية من مَطْلب اتّحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أقدر على مَعالجة مشكلاتهم المشتركة ، وأن يتَّجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية – تتجاوز القوميات – لكي يُحَقِّقوا التنسيق والعمل المشترك في هذه المجالات المهِمَّة » .

---

(٤٦) لا يعيب « علي عزت » ولا أي مسلم مخلص أن يحلم بدولة واحدة تجمع كل بلاد المسلمين وشعوبهم ولكن ما نريد أن نقرره هنا هو أن « علي عزت » لم يتعرض لهذا الموضوع . إنه معنيّ – أكبر عناية – بالأمة الإسلامية ، مَعْنيّ بالوحدة بين المجتمعات والشعوب والدول الإسلامية والتنسيق فيما بينها اقتصاديًّا وسياسيًّا .

ويَرُدُّ « علي عزت » بقوة على أَدعياء الواقعية من المسلمين الذين يَرون استحالة تحقيق هذه الوحدة حيث يقول : « ... الحق أن هذه الواقعية مَصْدرها الجُبن والخضوع لسطوة الأقوياء في هذا العالم . إنَّ منطق هذه الواقعية يقول : ينبغي للسَّادة أن يظلُّوا أَسْيادًا وأن يبقى العبيد عبيدًا . إن أدعياء الواقعية عندنا غير مؤهلين للإيمان أو العمل ، وهذا هو سِرُّ واقعيتهم المهينة . إنهم عندما يقولون : إنَّ وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه ، فإنهم إنما يعبرون عن عَجْزٍ يستشعرونه في أنفسهم ، فالاستحالة ليست في العالم الخارجي ، بل في صميم قلوبهم .

ومن المَزَاعم التي أُثيرت حول فِكر « علي عزت » أنه يرفض كل ما هو غير إسلامي في مجتمع المسلمين ، ولكن علي عزت - بعكس هذا الزعم - ينظر بإمعان إلى تجارب النظم الأخرى في العالم ويرى فيها أشياء نافعة وأخرى ضارة ؛ ولذلك فهو يُفَرِّق بين ما هو « غير إسلامي » وما هو « ضد إسلامي » ، وهو يرفض كل ما هو « ضد إسلامي » ولكنه لا ينكر الأول بل ينفتح عليه برحابة عقل وسَعة صَدر حيث يقول : « إذا تحرّرنا من هَوَس الحتمية التاريخية والتفتنا إلى وسطية الإسلام يمكننا دون تَعَصُّبات أن نكتشف ما تنطوي عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشَّر لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية ، ولكن باعتبارها تَجارِب إنسانية معينة تمارسها المجتمعات المعاصرة » .

ويمضي لِتَعْميق هذه الفكرة فيقول : « إذا نحن وضعنا الشّعارات والمصطلحات المُضَلِّلة جانبًا وأخذنا في حسابنا فقط الحقائق التي نَرَاها مَاثِلة أَمَامنا « فيجب أن نعترف بالتَّطور الهائل في العالم الرأسمالي الذي تكشف عنه حيويته وقُدْرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام ، إلى جانب أنه استطاع أن يُتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانوني » ، ومن ناحية أخرى « لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكي وخُصوصا في مجال تعبئة الموارد المادية وفي التعليم ، وفي القضاء على صُور الفقر التقليدية .. وفي الوقت نفسه لا يَسَعُنَا أن نتغاضى عن جوانب مُظْلمة وغير مقبولة في التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ولا أن نتجاهل الكَوارث الكبرى التي تُزَلزل كُلًّا من النظامين من وقت لآخر » . ويَخْلُص « علي عزت » من هذا كله إلى أن « الانفتاح العملي

للإسلام في مجال حلّ المشكلات يجعله في وَضْع متميّز يُمكّنه من دراسة التجارِب الإيجابية والسلبية للآخرين دون تعصبات » .. وبالتالي الانتفاع بأفضل ما في هذين النظامين .

ويذكّرنا « علي عزت » في النهاية بحقيقة مُهِمَّة ، وهي أننا لا يجب أن نستهين بقدر الأخوّة بين المسلمين ولا بالعاطفة القوية التي تَرْبطهم في جميع أنحاء الأرض بالقرآن ،

والتي تدل على أن العالم المسلم لم يَمُت وإنما لا يزال حيًّا ينبض بالحياة .. « فحيث تُوجد مثل هذه المشاعر لا يوجد موت .. إنَّ العالم المسلم ليس صحراء مُقفرة وإنما هو تُربة عذراء في انتظار الزُّراع وبِفَضْل هذه الحقائق تصبح مهمتنا واقعية قابلة للتحقيق .. إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر الكامنة إلى قُوًى فعالة مؤثرة . فالإخلاص للقرآن لا بد أن يتحوَّل إلى تصميم على تطبيقه ، وأن تتحول الجماعة الإسلامية القائمة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة .. وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لِتُصْبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات » .

وهكذا تتعاظم في فِكر « علي عزت » مكانة القرآن في صميم النظام الإسلامي ، كما تتعاظم قيم العدل والإنصاف والإنسانية .. ويرتفع فكره فوق الأحقاد والتعصبات وضيق الأفق ، لينطلق في رحاب الفكر الإنساني الواسع بحرية الواثق بإيمانه وسمو مقاصده ونُبل أهدافه .

۞ ۞ ۞ ۞


الإعلان الإسلامي


علي عزت بيجوفيتش
الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك



مقدمة المؤلف

إِنَّ الإعلان الذي نَعْرِضُه اليوم على الجماهير ليس من قبيل القِراءات المَوْصُوفة لغير المسلمين ، ولا للذين يَتَشَكَّكون في تَمَيُّز الإسلام عن أَي نظام أو مدرسة فكرية أُخرى .

هذا الإعلان مُوَجَّه إلى المسلمين الذين يعلمون إلى أي شيء ينتمون .. والذين تُحَدِّثهم قلوبهم حديثًا واضحًا صريحًا عن الجانب الذي يلتزمون الوقوف فيه .. ومن ثَمَّ فإنه دعوة لِتَفَهُّم النتائج التي تترتب بالضرورة على الموقف الذي يلتزمون به حُبًّا وَوَلاءً .

إنَّ العَالم المُسْلم[٤٧] بأسْره يَمُوج بحالة من الاضطراب والتحول ، ومهما يكن الشكل الذي سيتخذه – عندما تبدأ آثار هذا التحول في الظهور – فإن أمرًا واحدًا هو المؤكد .. ألا وهو : أن العَالَم المُسْلِم لن يكون أبدًا عالم النصف الأول من القرن العشرين .. لقد مَضَى عهد الاستسلام والركود بلا رجعة .

إنَّ أطرافًا كثيرة تحاول اليوم أن تستفيد من مرحلة الاضطراب والتحول الذي يمرُّ بها المسلمون ، وبخاصة القوى العالمية في الشرق والغرب .. ولكنهم بدلًا من استخدام جيوشهم يستخدمون الأفكار ورؤوس الأموال ..

---

(٤٧) يُفَضِّل المؤلف وصف بلاد المسلمين – بأوضاعها الراهنة التي تبتعد كثيرًا أو قليلًا عن حقائق الإسلام ومبادئه ونظامه – بـ «العالم المسلم أو البلاد المسلمة » ، وهو بذلك إنما يريد أن ينبهنا إلى أن ثمة فجوة قائمة بين واقع المسلمين التعيس وبين الإسلام الحقيقي .

ويتَّسق المؤلف مع نفسه عندما يُقْصِر الوصف بكلمة « إسلامي » على مَجَالات الفكر والمبادئ والحركة . « **المترجم** » .

وبهذه الأساليب الجديدة من السَّيطرة يحاولون – مرة أخرى – تحقيق نفس الأهداف القديمة ؛ وتأكيد سيطرتهم على الشُّعوب المسلمة وإبقائها في حالة مستمرة من الضعف الروحي والتبعية المادية والسياسية .

فإنَّ دول الغرب وروسيا والصين تتنافس جميعًا لِمَدِّ نُفُوذها على كل جزء من العالم المسلم ، إلا أن تنافسها لن يكون له جَدوى ، فالعَالَم المُسْلم لا ينتمي إلى أولئك أو هؤلاء ، إنما ينتمي إلى الشعوب المسلمة .

إنَّ عالمًا يتألف من ٧٠٠ مليون من السكان(٤٨) – يمتلك ثروات طبيعية ضخمة ، ويشغل مركزًا جغرافيًا متميزًا ، وارثًا لتقاليد ثقافية وسياسية عريقة – إذا انتصر للفكر الإسلامي الحي ، لا يمكن أن يبقى طويلًا في حالة الخضوع والتَّبَعيَّة ، ولا توجد أي قوة مهما عظمت تستطيع أن توقف الأجيال الجديدة من المسلمين من وضع نهاية لهذه الحالة الشاذة .

بهذا الإيمان نُعْلِن لأصدقائنا ولأعدائنا على السَّواء أن المسلمين مُصَمِّمون على أن يأخذوا مَصير عالمهم في أيديهم ، وأن يُنَظِّموا هذا العالم وَفْقًا لرؤيتهم الخاصة .

إنَّ الأفكار التي يَتَضَمَّنها هذا الإعلان ليست جديدة كلها ، إنما هي بالأحرى جماع أفكار طالما تردَّدَت في أماكن كثيرة مختلفة وعُلق عليها نفس الأهمية في جميع أنحاء العالم المسلم . أما الجديد في هذا الإعلان فهو سَعْيُه لتعزيز هذه الأفكار والخطط بعمل مُنَظَّم .

إنَّ الجهاد في سبيل غايات نبيلة ليس وليد اليوم ، فقد جرب المسلمون

---

(٤٨) كان هذا إحصاء السَّبعينيات ، أما الآن فيوجد حوالي مليار ونصف المليار مسلم في العالم .

السابقون الشهادة ، وتاريخهم حافل بصفحات مليئة بالمعاناة والتضحيات والشهداء . وكانت هذه في أساسها تضحيات شخصية قام بها أفراد مُتَمَيِّزُون أو مجموعة من أقليات شُجاعة تَصَادمت مع قوى الطغيان الجاهلي ، ولكن ضخامة المشكلة اليوم وما يكتنفها من صعوبات كثيرة يتطلب مزيدًا من العمل المنظم للملايين .

هل نُريد للشعوب المسلمة أن تخرج من دائرة التَّبَعيَّة والتَّخَلُّف والفقر ؟ هل نريد لها أن تنطلق في طريق العزة والنهضة مرة أخرى ؟ هل نريد للشجاعة المتوهجة والعبقرية والفضيلة أن تنبعث من جديد بكل قوتها وزخمها في كيان هذه الأمة ؟

يمكننا إذن أن نبين بوضوح الطريق الذي يُؤَدِّي إلى تحقيق هذه الغايات ؛ إنه طريق إحياء الإسلام في جميع مجالات حياتنا الفردية الشخصية ، وإحيائه في الأسرة والمجتمع ، وتجديد الأفكار الإسلامية ، وإقامة مجتمع إسلامي موحد من المغرب إلى أندونيسيا .

قد تبدو هذه الغاية بَعيدة المنال أو مستحيلة التحقيق ، ولكنها - رغم كل شيء - غاية عملية ؛ لأَنها الغاية الوحيدة التي تَقَع في إطار الإمكان . وعلى عكس ذلك .. كل برنامج غير إسلامي .. وإن بدا لنا قريب المنال - يعتبر بالنسبة للعالم الإسلامي مجرد طوبيا(٤٩) ؛ لأن هذه البرامج تقع في نطاق المستحيل .

---

(٤٩) « طوبيا » ترجمة لمصطلح Utopia وقد أقرّه « مجمع اللغة العربية بالقاهرة » في « المعجم الفلسفي » المنشور سنة ١٩٨٣م ، وهو هنا مستعمل بمعناه الأصلي كرؤية لنظام مثالي أو خيالي لمجتمع إنساني على غرار المجتمعات الحيوانية « كالنحل والنمل » وهي مجتمعات تفتقر إلى الإنسانية والحرية والأخلاق . « **المترجم** » .

أَثْبَت التاريخ حقيقة واحدة لا لَبْسَ فيها : ، وهي أن الإسلام هو الفكرة الوحيدة القادرة على إطلاق خيال الشُّعوب المسلمة .. الفكرة الوحيدة التي تستطيع أن تَقْطُر في عقول المسلمين وَوجْداناتهم كل ما يحفّزهم على التنظيم .. وكل ما يُفجِّر فيهم الطاقة والإلهام .. ولم تستطع فكرة أخرى أَجنبية عن الإسلام أن تستحوذ على فكر المسلمين استحواذًا حقيقيًّا سواء في الثقافة أو في السياسة . في الحقيقة .. لقد تمَّ كل أَمْر عظيم ومُهِمٍّ في تاريخ الشعوب الإسلامية تحت راية الإسلام ، فبضعة آلاف من المجاهدين المسلمين الذين أُحْسِنَ تَدْريبهم استطاعوا أن يُجْبروا البريطانيين على الانسحاب من قناة السويس في الخمسينيات ، بينما الجيوش الموحدة للأنظمة القومية في البلاد العربية تخسر المعركة للمرة الثالثة أَمام إسرائيل(٥٠) ، واستطاعت تركيا عندما كانت دولة إسلامية أن تحكم العالم ، أما تركيا التي تعيش اليوم عالةً على الفكر الأوربي فقد أصبحت دولة من الدرجة الثالثة ، شأنها في ذلك شأن مئات من الدول الأخرى المتخلفة في أنحاء العالم .

الشعب – شأنه تمامًا كشأن الفرد – إذا تقبَّل الإسلام يُصْبح غير قادر على الحياة أو الموت في سبيل أي فكرة أُخرى سوى الإسلام . ولا يُفَكِّر مسلم حقيقي أن يُضَحّي بنفسه من أجل مَلِك أو حَاكم مهما عَظُم قَدْرُه ، ولا من أجل مجد دولة أو حزب ؛ لأن أعمق غرائزه الإسلامية تستشعر في هذه التضحية نوعًا من الوثنية .

إن المسلم يُقْبِل على الموت فقط في سبيل الله ولِنُصْرَة الإسلام ، وفيما عدا

---

(٥٠) يُشير المؤلف هنا إلى حرب ١٩٦٧م بين العرب وإسرائيل .

ذلك فإنه يتجنب أرض المعركة .

وعصور السَّلبية والركود تعني في الحقيقة غياب الاختيار الإسلامي ، هنالك يجنح المسلمون عن وُلُوج الطريق الصعب إيثارًا للدَّعة ، ومن ثم نستطيع أن نقول : إن هذه العُصور هي التعبير السَّلبي للاحتكار الروحي الذي يُهيمن به الإسلامُ على العالم المسلم .

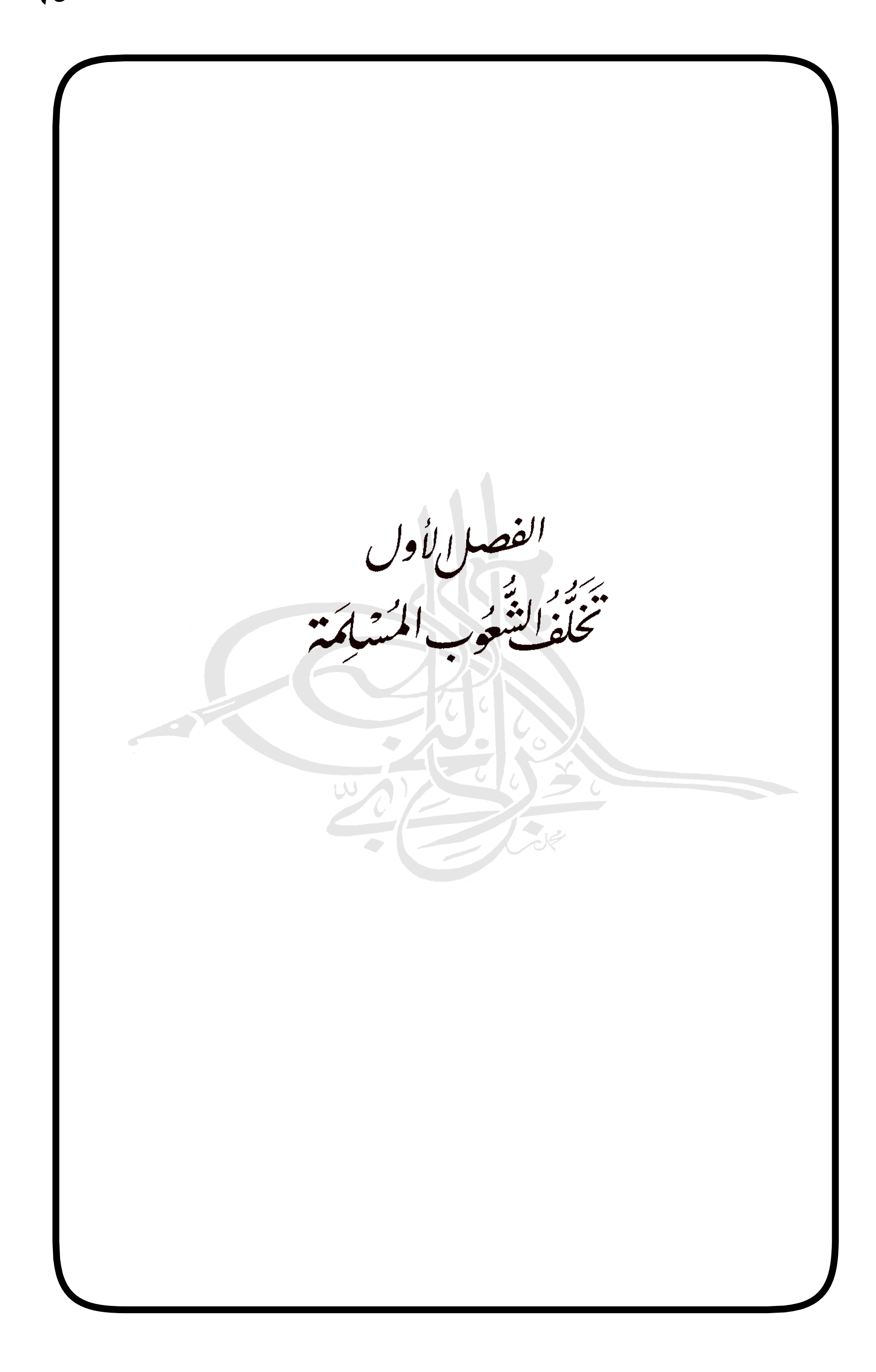
إذا سلَّمنا بهذا الموقف كتعبير عن إرادة الله لهذه الأمة ، فإننا نُقَرِّر بطريقة إيجابية أن العالم الإسلامي لا يُمْكن تجديده بدون الإسلام ولا بِفْكر مضادٍّ للإسلام ؛ ذلك لأن الإسلام ومَبَادئه الراسخة فيما يتعلق بمكان الإنسان في العالم ، والغاية من الحياة الإنسانية ، وعلاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بالإنسان – كل هذا يبقى على الدوام الأساس الأخلاقي والفلسفي والعقائدي والسياسي لأي عملٍ أَصيلٍ يمكن القيام به في سبيل تجديد الشعوب المسلمة وإصلاح حالها .

إنَّ الاختيار قاطع : فإما تَوَجُّهٌ كامل نحو النهضة الإسلامية ، وإما السَّلبية والركود ، وليس أمام الشعوب المسلمة اختيار ثالث .

إننا نُهْدِي هذه الرسالة إلى ذكرى إخواننا الذين سبقونا إلى الشهادة في سبيل الإسلام .

علي عزت بيجوفيتش





الفصل الأول

تَخَلُّفُ الشُّعُوبِ المُسْلِمَة



المُحافِظون ودُعاة الحَداثة

إِنَّ فكرة النهضة الإسلامية التي تنظر إلى الإسلام لا مِن حيث قُدرته فقط على تهذيب الإنسان وإنما أيضًا على تنظيم العالم ، سوف تصطدم دائمًا بنوعين من الناس وهم : المحافظون ، ودُعاة الحداثة .

يتعلَّق المحافظون بالأشكال القديمة ، ويتطَلّع دُعاة التحديث إلى الأشكال الأجنبية . يجُرُّ الأولون الإسلام إلى الوراء نحو الماضي ، ويُقْحم الآخرون الإسلام في متاهات مستقبل أَجنبي .

ورغم هذا الاختلاف ، فإنَّ هذين النوعين من الناس بينهما شيءٌ مشترك ، فكلاهما ينظر إلى الإسلام من زاوية ضيِّقة ، حيث لا يرى فيه إلا « دينًا مُجَرّدًا » بالمعنى الأُوربي لهذه العبارة . ونحن نرى في هذا الموقف قُصورًا في فهم لغة الإسلام ومنطقه ، بل إخفاقًا أكبر في فَهْم روح الإسلام ودوره في التاريخ وفي العالم . لقد أدى هذا القصور إلى سُوء فَهْم جسيم للإسلام باختزاله إلى مجرّد « دين » ، وتلك فكرة خاطئةٌ تمامًا(٥١) .

قد يَبدو من قبيل التكرار تأكيد الحقائق الأساسية فيما يتعلَّق بأصل الإنسان ورسالته ، إلا أن مَدخل الإسلام في هذه الناحية يُعَدُّ مدخلًا متميّزًا حيث يدعو إلى الجَمْع بين الإيمان والعلم . بين الأخلاق والسياسية .. بين المُثُل العليا والمصالح .

وبالاعتراف بوجود عَالَمين : العالم الطبيعي والعالم الروحي الجوَّاني ،

---

(٥١) لمزيد من التوضيح لفكرة « الدين المجرد » انظر : كتاب المؤلف : « الإسلام بين الشرق والغرب » الفصل الثامن : الإسلام والدين « **المترجم** » .

يُعَلّمنا الإسلام أن الإنسان بتكوينه الفريد هو الذي وَصَل بين هذين العالمين ، وبدون هذا التوحيد بين العالمين سنجد الدين يَميل إلى التخلف (حيث يرفض أي نوع من أنواع الحياة المنتجة) ، ونجد العلم يميل إلى الإلحاد .

وانطلاقًا مِن وِجْهة النَّظر التي تذهب إلى أن الإسلام مجرّد دين ، سنرى أن المُحَافظين يستنتجون أن الإسلام « لا ينبغي له » أن يَسْعى لتنظيم العالم الخارجي ، ونرى دُعاة الحداثة يستنتجون أن الإسلام « لا يستطيع » تنظيم العالم الخارجي ، والنتيجة العملية واحدة .

إنَّ النصير الرئيسَ - إن لم يكن الأَوحد - للفكر المُتَحَفِّظ في العالم المسلم اليوم هم « الحُجّاج والمَشايخ »[٥٢] هؤلاء الناس - خلافًا للتعاليم الواضحة أنه لا كهنوت في الإسلام - جعلوا من أنفسهم طبقة منظمة هَيْمنت على تفسير الإسلام ووضعت نفسها وسيطًا بين الإنسان والقرآن . ولأنهم جعلوا من أنفسهم طبقة فقد أصبحوا « لاهوتيين » مُتَحَجِّرين في معتقداتهم .

ولأن العقيدة الإسلامية في نَظَرهم قد تَنَزَّلت وتمَّ تفسيرها بصفة نهائية فإن أفضل شيء ممكن هو أن نترك كل الأُمور كما وصلت إلينا وتم تحديدها منذ ألف سنة مَضَت أو أكثر ، وبهذا المنطق المتحجّر أصبحوا أعداء أشدّاء لكل جديد ، فأي محاولة لتطوير الشريعة كقانون - بمعنى تطبيق مبادئ القرآن على المواقف المستجدة التي ما فتئت تظهر خلال تطور الحياة - يواجهها هؤلاء

(٥٢) المشايخ - عنده - هم في الأغلب رُؤوس الفرق الصوفية المنتشرون في البوسنة ، ولعل المؤلف يُشير إلى فئة من الناس صادفت أمثلة منهم في بلاد جنوب شرق آسيا ، عندما يعودون من أداء الحج يذهبون إلى قراهم بثوب جديد وعمامة ، ويلتف حولهم بسطاء المسلمين طلبًا للفتوى الدّينية ، ويَتَلبَّس الحُجَّاج بدورهم الجديد فيتصَدَّرُون للوعظ والفتوى وهم في الحقيقة لا يملكون إلا فتات المعرفة . « **المترجم** » .

بطعن في سلامة إيمان أصحاب هذه المحاولات . لعلهم يُفَسِّرون موقفهم بأنه حب للإسلام وغيرة عليه ، ولكنه حب مَرَضي لأناس متخلفين ضيِّقي الأُفق . لقد اختنق الفكر الإسلامي الحي بعناقهم المُمِيت .

ولكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام قد ظلَّ كتابًا مُغْلقًا في يد هؤلاء « اللاهوتيين » . حقًّا لقد ازداد انغلاقًا عن المعرفة المستنيرة ، ولكنه في الوقت نفسِه ازداد انفتاحا على الغيبيات . فقد سمح هؤلاء اللاهوتيون بتدوين كثرة من الأشياء اللامعقولة في هذا الكتاب ، أشياء غريبة تمامًا عن الفكر الإسلامي اشتملت على خُرافات مَحْضة .

إنَّ كل من عَرَف طبيعةَ اللاهوت يعلم لِمَ كان عاجزًا عن الصمود أمام إغراء الأساطير بل أكثر من هذا يرى فيها إثراء للفكر الديني .

وهكذا رأينا عقيدة الوحدانية التي جاء بها القرآن - وهي أنقى وأَكْمَل الأفكار الدينية التي ظهرت في التاريخ - يُضَحَّى بها تدريجيًّا ، بينما ظهرت في الممارسة تجارة بغيضة في العقيدة .

إن هؤلاء الذين يُسَمُّون أنفسهم شُرّاح العقيدة أو حُرّاسها قد جعلوا من هذا وظيفة مقبولة ومُرْبحة ، ودون وَخْزٍ من ضمير وصلوا إلى وضع رَضُوا فيه باستبعاد العقيدة عن مجالات تطبيقها في الحياة .

لقد تبين أن اللاهوتيين أناس غير صالحين في مكان غير مناسب . والآن وقد بدأت جميع الدلائل تُشير إلى أن العالم الإسلامي يصحو من رقدته ، فإن هذه الفئة أصبحت تمثل التعبير عن كل ما هو كَئيب ومُتَصَلّب في هذا العالم . لقد برهنت هذه الفئة على عجزها عن اتخاذ أي نوع من الخطوات الإيجابية

لتدعيم العالم المسلم في مُجَابهة الخطوب الفادحة التي تنزل به في كل يوم .

أما أولئك الذين يُدْعون بالتَّقَدُّميين أو العَصْريين أو المُسْتغربين إلى غير ذلك مما يسمون به أنفسهم ، فإنهم يمثلون في الحقيقة سوء حظ هذه الأمة المسلمة . إنهم كثرة كثيرة ، ذات نفوذ وتأثير . إنهم يُهيمنون بشكلٍ مَلحوظ على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة . وهم يرون في فئة المحافظين تشخيصًا للإسلام ، ويدعون الآخرين إلى أن ينظروا النظرة نفسها . وهكذا استطاع دعاةُ الحداثة أن ينشئوا جبهة ضد كل ما تمثله الفكرة الإسلامية .

ونستطيع التعرف على هؤلاء الذين أقاموا اليوم من أنفسهم مصلحين في البلاد المسلمة من خلال فخرهم بما كان يجب أن يخجلوا منه ، وخجلوا مما كان يجب أن يفخروا به !

إنهم « أبناء آبائهم » فقد تعلمُوا في أوربا ثم عادوا من هناك بشعورٍ عميق بالدّونية تجاه العالم الغربي المتقدم الغني ، وشعور بالاستعلاء على مجتمعاتهم التي جاءوا منها وقد أحاط بها الفقرُ والتخلّف . لقد حُرِمُوا من التربية الإسلامية الصحيحة وفَقَدُوا كُلّ صِلة رُوحيّة أو أخلاقية بشعوبهم ، ومن ثم فَقَدُوا معاييرهم الأولى وأصبحوا يتخيّلون أنهم بتخريب الأفكار المحلية والتقاليد والمعتقدات وبتقديم أفكار غريبة سيقيمون أمريكا - التي يكنّون لها إعجابًا مُبَالغًا فيه - على أرض بلادهم في يوم وليلة .

إنهم بدلًا من العمل على تطوير إمكانات بلادهم الخاصة ذهبوا ينفخون في شهوات الناس ويضخمون رغباتهم المادية ، فأفسحوا بذلك الطريقَ أمام الفساد والفوضى الأخلاقية ، إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن قوة العلم الغربي لا تكمن في طريقته في الحياة وإنما في طريقته في العمل ، وأن قوّته ليست في الموضة

والإلحاد وأوكار الليل وتمرد الشباب على التقاليد ، وإنما تكمن في الكدح الذي لا مثيل له ، وفي المثابرة والعلم والشعور بالمسئولية التي تتميز بها شعوبهم .

المشكلة إذن ليست في أن مستغربينا قد استخدموا أساليب أَجنبية ، وإنما في أنهم لم يَعرفوا كيف يستخدمونها أو يضعونها في موضعها الصحيح ، وأنهم لم يفلحوا في تطوير حِسّ قوي يَكفي للتمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح ، ومن ثم أخفقوا في اختيار المنتج الحضاري المفيد واستعاروا لمجتمعاتهم بدلًا منه عرضًا مرضيًّا من أعراض هذه الحضارة فكان مُنتجًا ضارًّا ، بل قاتلًا .

ومن بين السِّلع المشكوك في قيمتها – مما يجلبه مستغربونا معهم إلى أوطانهم – أفكار « ثورية » مختلفة وبرامج إصلاح ، و « مذاهب إنقاذ » موصوفة لعلاج جميع المشكلات . فإذا تأملناها مليًّا نجد – لدهشتنا – نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها .

خذ لذلك مثلًا : « مصطفى كمال أتاتورك » الذي كان قائدًا عسكريًّا أكثر منه مصلحًا ثقافيًّا ، والذي ينبغي وَضع خدماته لتركيا في حجمها الصحيح ؛ ففي أحد برامجه الإصلاحية منع لبس الطربوش ، وطبعا ظهر على الفور أن تغيير غطاء الرُّؤوس لا يعني تغيير ما في هذه الرؤوس ولا تغيير عادات أصحابها .

لقد واجهت أمم كثيرة خارج العالم الغربي – على مدى قرن من الزمن – مشكلة : كيف تنتسب إلى الحضارة الغربية ، هل ترفضها كلية ؟ أم تختار منها بحذر ؟ أم تأخذها كلها بخيرها وشرها ؟ ولقد تحددت عوامل سقوط كثير من هذه الأمم أو ارتفاعها بالطريقة التي أجابت بها على هذا السؤال المصيري .

فهناك إصلاحات تعكس حكمة أمة ما ، وإصلاحات تمثل خِداع أمة

لنفسها ، والمثل على ذلك قائم في نموذجين هما : اليابان وتركيا .

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يجد المتأمل أن كلا الدولتين تُقَدمان صورة شبيهة جدًّا لدول أخرى مثيلة .

فقد كانت الدولتان تمثلان إمبراطوريتين قديمتين ، كل منها له ملامحه ومكانته التاريخية . كلاهما وجدت نفسها على المستوى نفسِه من التطور .. كلاهما يمتلك ماضيًا باهرًا . وهذا يشير إلى الامتياز العظيم وإلى العبء العظيم في الوقت نفسِه ، وفي كلمة واحدة ، كانت فرصتهما في المستقبل – عند نقطة معينة – تكاد تكون متساوية .

ثم جاءت الإصلاحاتُ المشهورة في كل من الدولتين . أما اليابان – فَلِكي تستمر في الحياة بطريقتها الخاصة وليس بأي طريقة أخرى – حاولت أن توحّد بين تقاليدها الخاصة وبين متطلبات التقدم ، بينما اتجه التقدميون دُعاة الحداثة في تركيا إلى سلوك الطريق المعاكس (فتخلّوا عن تقاليدهم واندفعوا في طريق التغريب) . فماذا كانت النتيجة ؟ أصبحت اليوم تركيا من الدرجة الثالثة ، بينما اليابان ترتفع إلى القمة بين أُمم العالم .

ويبدو الاختلاف بين فلسفة الإصلاح الياباني وفلسفة الإصلاح التركي أكثر وضُوحًا في موقفهما المختلف من مسألة حروف الكتابة ؛ حيث قامت تركيا بإلغاء حُروف الكتابة العربية في حين أن هذه الحروف – لبساطتها ولأنها تتألف من ثمانية وعشرين حرفًا فقط – تعتبر واحدة من أكمل وأرقى حروف الكتابة وأكثرها انتشارًا في العالم .

أما اليابان فقد رفضت دعوة مستغربيها في تبني حروف الكتابة اللاتينية

وأصرت على الاحتفاظ بنظام كتابتها المعقد الذي يحتوى على ٨٨٠ « إيديوجرام » (شكلا صينيًّا) بالإضافة إلى ٤٦ حرفًا أخرى . ورغم ذلك فلا يوجد في اليابان أمية ، بينما نجد تركيا بعد أربعين سنة من استخدام الحروف اللاتينية تزيد الأمية فيها عن خمسين في المائة من تعداد السكان الذين يجهلون القراءة والكتابة . وتلك نتيجة تجعل الأعمى يَسْترد بصره .

وليس هذا هو كل شيء ، فقد أَصبح واضحًا أن القضية لم تكن مجرد حروف كتابة ، هي مجرد وسيلة للتسجيل ، ولكن الأسباب الحقيقية وبالتالي النتائج التي ترتبت عليها كانت أكثر عمقًا وأكبر خطرًا . فجوهر كل حضارة أو تقدم إنساني يكمن في الاستمرارية وليس في التخريب والتنكّر للماضي .

إن طريقة الأمة في الكتابة هي الطريقة التي تتذكر بها الأمة وتستمر في وجودها التاريخي ، وعندما أَلْغَت تركيا الحروف العربية فَقَدت كل ثَرَاء الماضي الذي حفظته الكلمة المكتوبة .

وبهذا الإجراء وَحْده وضعت الأمة على حافة البربرية . ومع سلسلة أخرى من الإصلاحات المماثلة وجدت الأجيال التركية نفسها بلا دعامة روحية تقوم حياتها ، وجدت نفسها في فراغ روحي بعد أن فَقَدت ذاكرتها الماضية ، فمن الذي استفاد بهذا الوضع ؟

إنَّ دُعاة الحداثة في العالم المسلم حينذاك لم يكونوا من الحكماء الذين انبثقوا من صميم شعوبهم ، يعرفون كيف يُطَبّقون بطريقة جديدة الأفكار والقيم القديمة على الظروف المتغيرة ، إنما ناصبوا هذه القيم العداء ، فَعَلوا ذلك بسخرية باردة ، وبقِصَر نظر رهيب ، وسَحَقُوا بأقدامهم كل ما هو مقدَّس عند الناس ، فدمّروا الحياة واستزرعوا بدلًا منها حياة مصطنعة غير حقيقية .

ونتيجة لهذه البربرية التي سادت في تركيا كما سادت في كل مكان ، ظهرت دول مزيفة أصابها الاضطراب الروحي وفقدت ملامحها العريقة كما فقدت حاسة الاتجاه الصحيح . كل شيء فيها أصبح سطحيًّا زائفًا ، وفقد الإنسان فيها القوة والحماس .

وهكذا أصبحت الأمة مسْخًا مشوَّهًا يشبه مدنها الحديثة ذات البريق المصطنع الذي يخفي وراءه باطنًا خَرِبًا .

فهل تستطيع دولة لا تعرف هويتها ولا تعرف أين تمتد جذورها أن تكوِّن لنفسها صورة واضحة عن الموقع الذي تنتمي إليه ، والأهداف التي يجب أن تسعى لتحقيقها ؟

قد يبدو النموذج الذي قدّمه « أتاتورك » مفجعًا ، ومع ذلك فإنه يمثل النمط الغربي لِفَهم مشكلات العالم المسلم ، كما يُمَثِّل الطريقة التي يفكر بها الغربيون والمستغربون لإصلاح هذه المشكلات .

وقد أدى بنا هذا إلى مصير واحد : التغريب والانسلاخ والهروب من مواجهة المشكلات الحقيقية ، ومن العمل الجاد للارتفاع بالناس أخلاقيًّا وتعليميًّا ، والتَّوجُّه كليةً إلى الخارج والسطحي والمصطنع .

فما الذي يَغْنيه استقلال دولة مسلمة وقعت إدارة حياتها العامة في أيدي هذا النوع من الناس ؟ وما الذي استفاده الشعبُ من هذا الاستقرار والحرية ؟

إنَّ كل دولة بِتَقَبُّلها هذه الطريقة من التفكير الأجنبي معتمدة على الدعم السياسي الأجنبي سواء من الشرق أو الغرب – قد أَذْعنت للعبودية من جديد . وهكذا وجدنا أمامنا نوعًا من الاستقلال يعتنق فلسفة أجنبية وطريقة أجنبية في

الحياة ، استقلال يستند إلى المساعدات الأجنبية ورؤوس الأموال الأجنبية . والدعم الأجنبي بصفة عامة . فالذي اكتسبته هذه الدول - على وجه الحقيقة - إنما هو استقلال شكلي ، ولكنها لم تحصل على حرية حقيقية ؛ لأن كل حرية في صميمها حرية روحية ، وأي استقلال لا يحقق هذا الشرط سرعان ما يُختزل إلى مجرد السَّلام الوطني وعَلَم جديد ، وهما عُنْصُران تافهان بالنسبة للاستقلال الحقيقي . ومن ثم فإن الجهاد من أجل الاستقلال الحقيقي للشعوب المسلمة لابد أن يبدأ من جديد .

جُذُورُ العَجْز

هذان النوعان من الناس : المحافظون ودُعَاة الحداثة ، يمثلان المفتاح لفهم الأوضاع الراهنة للشعوب المسلمة . إنهما وإن لم يكونا السبب الوحيد لهذه الأوضاع ، إلا أن كِلا الوجهين يعتبر المظهر الخارجي لسبب أعمق . ألا وهو الحطّ من قَدْر الفكر الإسلامي من ناحية ورَفْض هذا الفكر من ناحية أخرى .

ليس تاريخ الشعوب المسلمة فقط تاريخ التأكيد المتصل للإسلام في الحياة العملية ، بل إنه بنفس الدرجة قصة جهل وإهمال وسوء استخدام وخيانة للفكر الإسلامي . ولذلك فإن تاريخ كل شعب مُسلم هو قائمة المنجزات العبقرية والانتصارات وفي الوقت نفسِه قائمة الأخطاء الفاحشة والهزائم . وكل نجاحاتنا وإخفاقاتنا من الناحيتين الأخلاقية والسياسية هي مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التي طبقناه بها في الحياة . لقد كان ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوبًا دائمًا بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية .

وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق ، كأن هذا التطابق هو المصير الذي لا مَنَاص منه للشعوب المسلمة وأحد قوانين التاريخ الإسلامي نفسه .

وهناك لحظتان متميزتان في مجرى التاريخ الإسلامي ، أحدهما لحظة ازدهار والأخرى لحظة انحطاط ، وهما يصوِّران هذه الحقيقة أصدق تصوير .

لقد تُوفِّي محمد ﷺ سنة ٦٣٢م ، وفي أقل من مائة عام من وفاته انتشرت القوة الروحية والسياسية لرسالته على بقعة هائلة من الكرة الأرضية ممتدة من المحيط الأطلسي إلى الصين ومن بحيرة آرال إلى منابع النيل .

فُتحت سوريا سنة ٦٣٤ وسقطت « دمشق » أمام الجيش الإسلامي سنة ٦٣٥م ، ووصل الإسلام إلى مصر والهند سنة ٦٤١م ، وإلى « قرطاج » سنة ٦٤٧م ، وإلى « سمرقند » سنة ٦٤٧م . وكان المسلمون على أبواب القسطنطينية سنة ٧١٧م . وفي سنة ٧٢٠م كانوا في جنوب فرنسا ، وكان هناك مساجد في شانتونج سنة ٧٠٠م وحوالي سنة ٨٣٠ وصل الإسلام إلى جزيرة جاوه .

هذا التوسع الفريد الذي لا يُقَارن بأي تَوَسُّع آخر قبله أو بعده قد وفَّر مساحة لتطوير الحضارة الإسلامية في ثلاثة عوالم ؛ في أسبانيا والشرق الأوسط والهند ، وذلك على مدى حقبة من الزمن تبلغ حوالي ألف عام .

فما الذي يُمَثّله المسلمون اليوم في العالم المعاصر ؟ هذا السؤال يمكن وضعه بطريقة أخرى : إلى أي مدى نحن مسلمون ؟!

إن الإجابة على هذين السؤالين واحدة :

نحن مستعبدون ؛ في نقطة معينة من التاريخ الحديث هي سنة ١٩١٩م لم تكن توجد دولة مسلمة واحدة مستقلة ، ولم تتغير الأوضاع بعد هذه النقطة تغيّرًا جوهريًّا .

نحن غير متعلمين ؛ ففي الفترة ما بين الحربين العالميتين لم تُوجد دولة مسلمة واحدة بلغت نسبة القراءة والكتابة فيها أكثر من ٥٠ ٪ وعند الاستقلال وُجد أن ٧٥ ٪ من شعب الباكستان و ٨٠ ٪ من الجزائريين و ٩٠ ٪ من النيجريين يُعانون من الأمية .

وإذا قارنا هذا الوضع بما ذكره « درابر » DRAPER عن أسبانيا المسلمة « الأندلس » خلال القرن الحادي عشر الميلادي تملَّكَنا العَجَب ، فقد أكد « درابر » أنه لم يكن يوجد في أسبانيا حينذاك فرد واحد يجهل القراءة والكتابة .

نحن فقراء ؛ فقد كان متوسط الدَّخل الفردي في إيران سنة ١٩٦٦ يبلغ ٢٢٠ دولارًا أمريكيا ، وفي تركيا ٢٤٠ دولارًا ، وفي ماليزيا ٢٥٠ دولارًا ، وفي باكستان ٩٠ دولارًا ، وفي أفغانستان ٨٥ دولارًا ، وفي أندونيسيا ٧٠ دولارًا ، مقارنة بـ ٣٠٠٠ دولار متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة في السنة نفسِها . وكان إِسهام الصناعة في الدخل القومي للدول المسلمة يتفاوت من ١٠ ٪ إلى ٢٠ ٪ ، وكان نصيب الفرد من السُّعرات الحرارية في وجبات الغذاء اليومية يبلغ ٢٠٠٠ وحدة في المتوسط مقارنة بـ ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ وحدة من السُّعرات في أوربا الغربية .

نحن مجتمعات ممزقة ؛ فبدلًا من الحفاظ على مجتمع واحد خالٍ من الفقر الكافر والتَّرف السفيه ، تحوَّلت المجتمعات المسلمة إلى عكس هذه الصورة ، مُناقضة في ذلك لتعاليم القرآن التي تَحُولُ دون تركيز الثروة في يد فئة قليلة من

الناس دون بقية أفراد المجتمع ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] ، فالملكية تنتقل تدريجيًّا إلى يد الأقلية الغنية . قبل الإصلاح الزراعي في العراق سنة ١٩٥٨ كان كبار الملاك يملكون ١٨ مليون دونم من الأرض الزراعية التي تبلغ جملتها ٢٢ مليون دونم أي٨٢ ٪ ، بينما كان يوجد مليون وأربعمائة ألف فلاح عراقي لا يملكون أرضًا على الإطلاق .

تلك هي حال المسلمين التي سمَّاها البعضُ بحق « ليل الإسلام المظلم » ، والحقيقة أن هذا الليل قد بدأ بغروب في قلوبنا . وكل ما حدث لنا وما يحدث لنا اليوم إنما هو صدى وتكرار لما حدث من قبل في داخلنا : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

إننا إذا استمسكنا بإسلامنا استمساكًا حقيقيًّا لا يمكن اسْتِعْبَادنا أو إيقاعنا في الجهالة أو تجهيلنا أو تمزيق وحدتنا ، لا يمكن أن نرتد عن الإسلام ، لقد جاءت كل هزائمنا ابتداءً من غزوة أُحُد حتى هزيمتنا في سيناء لتؤكد هذه الحقيقة عندما نتخلى عن الإسلام يتخلى النصرُ عنا .

وتتجلى ظاهرة التخلي عن الإسلام أو هجره بوضوح في محاولات قمع الفكر الإسلامي واستبعاده من الحياة النَّشِطة المتوثبة ، كما تبدو في اختزال الإسلام إلى حالة من السّلبية والتسطيح . ويمكن ملاحظة هذا بأكبر قَدْر من الوضوح في طريقة تناولنا اليوم للقرآن وهو الفكرة المركزية في الإيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن كل تقدُّم حَدَث في الشعوب الإسلامية وكل عصر من عصور الازدهار قد بدأ بالتأكيد على القرآن ، لم يكن امتداد الفتح الإسلامي - الذي أَلْمَحْنَا إلى مَسْلكه العبقري آنفًا والذي استطاع خلال جيلين

أن يصل إلى شواطئ الأطلسي في الغرب وإلى أعماق الصين في الشرق – لم يكن هذا المدّ هو المثل الأوحد ، بل المثل الأعظم لهذه الحقيقة . وكل التحولات الكبرى في تاريخ الإسلام تؤكد هذه الحقيقة .

فماذا كان وضع القرآن في الحِقْبة السابقة على عصر الجمود والتقهقر ؟

إِنَّ الإخلاص للكتاب لم يتوقَّف ، ولكنه فَقَدَ خصوصيته الفاعلة ، لقد استبقى الناسُ في أفئدتهم من القرآن ما أُشِيع حوله من تصوف ولا عقلانية ، فَقَدَ القرآن سلطانه كقانون ومنهج حياة واكتسب قداسته « كشيء » .

وفي دراسة القرآن وتفسيره استسلمت الحكمة للمماحكات اللفظية ، واستسلم الجوهر للشكل ، وعظمة الفكر للمهارة والحفظ . وتحت التأثير المستمر للشكلية الدينية قلّت قراءة القرآن وكثر الاستماع إلى تلاوته بصوت غنائي . أما ما يَحُثُّ عليه القرآنُ من جهاد واستقامة وتضحية بالنفس والمال ، وهي أُمور شاقة بغيضة إلى النفوس الواهنة ، كل ذلك قد ذاب وتلاشي في ضباب الصوت الجميل لتلاوة القرآن وحفظه عن ظَهْر قلب . هذه الحالة الشاذة قد أصبحت الآن مقبولة كنموذج سائد بين الشعوب المسلمة ؛ لأنها تتناسب مع أعداد متزايدة من المسلمين لا يستطيعون الانفصام عن القرآن ولكنهم من ناحية أخرى لا يملكون القوة أو الإرادة على تنظيم حياتهم وفق منهج القرآن .

ولعل التفسير النفسي لهذه المبالغة التي يخلعُها الناسُ على التلاوة المنغَّمة للقرآن يكمن في هذه الحقيقة .

فالقرآن يُتْلى ، ثم يُفَسَّر وَيُتْلى ، ثم يدرس ويتلى مرة أخرى .

وهكذا تتكرر الآية ألف مرة ومرة حتى لا نطبقها في حياتنا مرة واحدة . لقد

أنشئ علم كبير لتحري الدقة المتناهية في نطق القرآن حتى نتجنب قضية كيف نُمارس القرآن في حياتنا اليومية . وهكذا تحوَّلَ القرآنُ [عندنا] إلى صوت مُجَرّد من الوعي ضبابيّ المعنى .

إنَّ واقع العالم المسلم بكل تناقضاته ، وكل ما فيه من فِصام بين الكلمة والفعل ، وانحرافه عن الواجب ، وشُيوع الفساد والظلم والجبن ، ومَسَاجده الخالية وافتقاره إلى المُثُل العليا وإلى الشجاعة ، وانتشار الشعارات الإسلامية المثيرة والتشدد المتنطع في أداء التكاليف الدينية ، والاعتقاد بدون إيمان حقيقي فعّال - كل هذا ليس إلا انعكاسًا خارجيًّا للتناقض الأساسي الذي أحطنا به القرآن ، والذي يتمثل في الحماس المشتعل للكتاب من ناحية والإهمال الكامل لمبادئه في الممارسة العملية من ناحية أخرى .

إنَّ وضع القرآن هذا هو السبب الأول والأكبر أهمية للتخلُّف والعَجْز الذي تُعانيها الشعوب المسلمة . وهنالك سبب آخر ذو أهمية عامة وهو التعليم القائم أو بالأحرى نظام التربية بأوسع معانيه .

كانت شعوبنا - عبر قرون كثيرة مضت - محرومة من وجود أُناسٍ متعلمين تعليمًا صحيحًا فعالًا . وبدلًا من ذلك توفَّر لهذه الشعوب نوعان آخران من الناس كلاهما غير مرغوب فيه : الجهال والمتعلمون تعليمًا خاطئًا . فلا يوجد في دولة مسلمة واحدة نظام تعليمي مُعَدٌّ إعدادًا مناسبًا قادرًا على التجاوب مع الفَهْم الأخلاقي للإسلام أو التجاوب مع احتياجات الناس .

فأصحاب السلطة عندنا إما أنهم قد أهملوا هذه المؤسسة بالغة الحساسية في أي مجتمع ، أو تركوها نهبًا للأجانب يتصرَّفون فيها وفق مخططاتهم .

فالمدارس التي يموِّلها الأجانب بتبرعاتهم ويُوفِّرون لها المعلمين والمديرين الذين يجلبون معهم الإيديولوجية والمناهج ، هذه المدارس لا تُعلِّم الناس ليكونوا مسلمين ولا حتى ليكونوا وطنيين ، إنما يحقن النشء فيها بـ « فضائل » الطاعة والخضوع والانبهار بتقدُّم المجتمعات الأجنبية وسطوتها وثرائها . وفيها يُربّون في الصفوة عقلية التبعية ؛ لأنهم يعلمون أن هذه الصفوة ستحل مكانهم في المستقبل بنجاحٍ باهر ، حيث يشعر أعضاء هذه الصَّفوة بأنهم أجانب في بلادهم وسيتصرفون على هذا الأساس ، وممَّا له دلالة كاشفة تلك الكثرة الكثيرة من المدارس التي يديرها الأجانب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

ولا بد أن نتأمل في أسباب هذا الكَرَم العجيب ، وأن نتفحص مناهج هذه المدارس ونُحَلّل محتواها تحليلًا عميقًا ، وأن نتنبه إلى عدم اشتمالها على موضوعات بعينها ، حينئذ سيتضح لنا تمامًا أن القضية الحقيقية ليست هي ما إذا كان أعضاء النخبة عندنا يرغبون في أن يجدوا طريقًا للوصول إلى شعوبهم والتعرف على طموحاتها ومصالحها الحقيقية ، ولكن القضية هي أنهم وقد تَشَكَّلوا على هذا النحو لا يمكن أن يهتدوا إلى هذا الطريق على الإطلاق ؛ والسبب يرجع إلى تلك القيم والمثل التي نشأت عليها هذه النخبة ، وإلى تلك الفجوة النفسية التي أقيمت بينهم وبين شعوبهم .

وهكذا لم يَعُد هناك ضرورة للسلاسل الحديدية لإخضاع شعوبنا فإن الخيوط الحريرية للتعليم الأجنبي لها نفس القوة ، إنها تُشلّ عقول المتعلمين وإراداتهم . وبهذا الوضع للتعليم فإن الأجانب من أصحاب النفوذ وأتباعهم من أبناء البلاد المسلمة ليس عندهم مَا يَخْشَونه على مراكزهم ، فبدلًا من أن يكون التعليم مصدرًا للتمرد والمقاومة يُصْبح أكبر حليف للأجانب وأتباعهم .

هذه الفجوة المأساوية بين النُّخْبة وبين الشعوب في البلاد المسلمة – وهي أحد أسوأ الملامح في وضعنا العام – قد ترسّخت من الجانب الآخر . فبسبب إحساس المسلمين بخصوصية هذه المدارس رفضوها رفضًا غريزيًّا ، ومن هنا أصبح النفور متبادلًا .

لقد قامت في الغرب اتهامات غامضة بالنسبة لنفور البيئات المسلمة من المدارسة والتعليم .

والحقيقة أن القضية ليست نفورًا بهذا المعنى ، وإنما هي نفور المسلمين من المدارس الأجنبية التي تفتقد كل صلة روحية بالإسلام وبالشعوب المسلمة .

لامبالاة الجماهير المسلمة

ما جاء به دُعاة الحداثة إلى عدد من البلاد المسلمة يُعتبر – كقاعدة عامة – اتجاهًا « لا دينيًّا » ، يَقُودهم في هذا شعارات معينة تُنادي بِفَصْل الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية ، هذا الاتجاه يستدعي إلى الذاكرة قصة الصراع الذي نَشَب بين الدول القومية وبين الكنيسة الأوربية في مستهل العصر الحديث .

لكن ذلك الذي كان يعني تقدمًا ومتفقًا مع الأوضاع التاريخية في الغرب كان بالنسبة للعالم الإسلامي عملية غير طبيعية ، تعجز عن إحداث أي تغيير إيجابي في حياة شعوب هذا العالم . فالقوميات وكَبْحُ سُلطانِ الدين والكنيسة الذي كان يعني كل شيء في تاريخ الغرب الحديث ، لا يعني شيئًا على الإطلاق في تاريخ العالم الإسلامي ولأن هاتين الفكرتين (القومية وعَزْل الدين عن الحياة العامة) فكرتان غريبتان في أصلهما وتكوينهما ، وكانت انعكاساتهما في العالم المسلم عُقْمًا روحيا عامًّا . وباستزراعهما في أرض المسلمين ارتفع الستار عن الفَصل

الأخير في مأساة العالم المسلم . إننا يمكن أن نُسَمِّي هذا الفصل « العلاقة المزدوجة » أو التوافق الداخلي بين عناصر الفكر والقيادة في المجتمع من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى ، حيث تُمثّل النخبةُ القائدةُ الفكرَ والإرادة بينما تمثل جماهيرُ الشعبِ القلبَ والدّم ، وبتعاونهما معًا يتحقق الشرط الأول لأي إنجاز عظيم ، وبدون هذا التعاون أو على الأقل بدون رِضاء الجماهير تبقى الأعمال مصطنعة مفتقرة إلى القوة الضاربة .

ويمكن التغلب على سلبية الجماهير وركودها إذا كان ذلك مجرد نتيجة للمقاومة الطبيعية للعمل الشاق أو الهرب من مخاطر الكفاح ، ولكن يستحيل التغلب على هذه السلبية إذا كانت تمثّل رفضًا لأهداف الكفاح نفسها ؛ لأن الجماهير حينذاك سَتَرى هذه الأهداف مُتَعارضة مع أعز رغباتها ومشاعرها الحميمة .

هذه الحالة الأخيرة التي نَشْهدها اليوم – بدرجات متفاوتة – في جميع البلاد المسلمة ، حيث يحاول أدعياءُ الحداثة تنفيذَ برامجهم الدخيلة ؛ فتراهم يلجأون إلى منافقة الجماهير أحيانًا وإلى التهديد أحيانا أخرى ، يدافعون ويحثون ، يقيمون التنظيمات ثم يهجرونها إلى تنظيمات أخرى ، يغيّرون الأسماء والشخصيات ، ولكن يضربون برؤوسهم دائما في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى للأمة .

نذكر هنا على سبيل المثال « الحبيب بورقيبة » كنموذج لاتجاه شائع في بلاد المسلمين . كان « بورقيبة »[٥٣] يلبس الملابس الأوربية ويتكلم الفرنسية

---

(٥٣) كان رئيسًا لجمهورية تونس منذ الاستقلال حتى طعن في السن ، أصابه الخرف فأطاح به انقلاب =

في بيته ، وكان حريصًا على أن يعزل تونس لا عن العالم الإسلامي فقط ، بل عن العالم العربي أيضًا ، حَاصَر التعليم الديني وقيَّده . وكان يدعو لإلغاء الصوم في رمضان ؛ لأن الصيام – كما يزعم – « يُقلّل الإنتاج » ، ولكي يجعل من نفسه قدوة مناسبة قام بشرب عصير البرتقال (على شاشة التليفزيون) في نهار رمضان . وبعد كل هذا يتعجب « بورقيبة » من سلبية وانعدام التأييد من جانب الجماهير التونسية المسلمة لإصلاحاته « التقدمية » ! حقًّا إن أدعياء الحداثة لو لم يكونوا بهذا العمى لَبَطل عَجَبهم !

إنَّ الشعوب المسلمة لن ترضى بأي شيء يخالف الإسلام(٥٤) ؛ لأن الإسلام ليس مجرّد مجموعة من الأفكار والقواعد والقوانين ، وإنما يتجاوز هذا كله ليصل – في الإنسان المسلم – إلى مكامن حبّه وعميق مشاعره ، وكل من

= سِلْميّ قام به وزير داخليته ، الذي تولى رئاسة الجمهورية ثم تابع مَسِيرته ، والعجب أن بورقيبة كان يطلق على نفسه لقب « المجاهد الأكبر » ! « **المترجم** » .

(٥٤) في مقال نشر بالأهرام في ١٩ يناير سنة ١٩٩٤ للدكتور فؤاد زكريا ـ وهو أحد أعمدة العلمانية ـ يعجب لحقيقة ويقرر حقيقة أخرى : فهو يقرر – مُصيبًا – أن العلمانيين قد أجهدوا أنفسهم من الكلام ولكن أحدًا لا يستمع إليهم كأنهم يخاطبون بعضهم بعضًا . ويَعجب من أن العلمانية قد أحيطت بكل صفة سيئة بدون وجه حق ، ونحن لا نرد عليه فقد تكفل بذلك أ.د . يوسف القرضاوي في كتابه : « الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه » ، فإذا كان لنا أن نضيف شيئا فإننا نحيل القارئ إلى كتاب آخر للمستشار طارق البشري بعنوان « مشكلتان وقراءة فيهما » ، حيث يؤكد لنا التاريخ المعاصر أن النخب والفصائل العلمانية قد حكمت بنفسها أجزاء كثيرة من بلادنا وشَايَعت مختلف الأنظمة والدكتاتوريات العسكرية والحزبية ومنحتها رضاها وتأييدها وهي تنكل بالجماهير . وبمجرد أن لاح احتمال وصول الإسلاميين إلى السلطة عبر صناديق الانتخابات وقفت هذه الفصائل صراحة ضد الديمقراطية وهب بعضهم يستعدي السلطات الدكتاتورية والأقليات البوليسية لا على الإسلاميين فحسب ، بل على الأمة كلها ، بل إنهم يستنفرون الأقليات العرقية والدينية ضد الغالبية المسلمة . فهل بقى من عجب عند قادة العلمانية ؟ ! « **المترجم** » .

ينهض ضد هذا الدين لن يجني من عمله سوى الكراهية والمقاومة .

لقد خَلَقَ دُعاةُ الحداثة حالةً من الصَّراع الداخلي والاضطراب في المجتمعات المسلمة ، بحيث أصبح كل برنامج (إصلاحي) سواء أكان إسلاميًّا أم أجنبيًّا غير قابل للتطبيق ، فالجماهير تتطلع إلى مشروع إسلامي ولكنهم لا يستطيعون القيام به وحدهم بدون نخبة تقودهم ، والنخبة – من ناحية أخرى – تفرض على الجماهير برامج أجنبية ، ولكنها لا تجد من هذه الجماهير استعدادا لكي يسهموا بعرقهم ودمائهم وحماسهم لتنفيذ هذه البرامج المستغربة فتبقى أبدًا حبرًا على ورق . وهكذا تظل القوتان في تصادم ، تلغي إحداهما الأخرى ، وتبقى على الساحة حالة من الشلل والعجز .

والحق أن هذه الساحة (التَّعيسة) يمكن أن تشهد نظامًا حيًّا وازدهارًا وتقدُّمًا ، ولكن لن يكون هذا النظام أو الازدهار والتقدم أوربيًّا أو أمريكيًّا ، كلا ، فإن سلبية الجماهير المسلمة ليست سلبية مطلقة ، وإنما هي في حقيقتها الطريقة التي يدافع بها الإسلام الشعبي عن نفسه ضد الهجمات الخارجية والأجنبية . ولكن ما أن يظهر احتمال جهاد إسلامي حقيقي فإن الإنسان البسيط يُبرهن على استعداده للجهاد والمعاناة ، بل الموت .

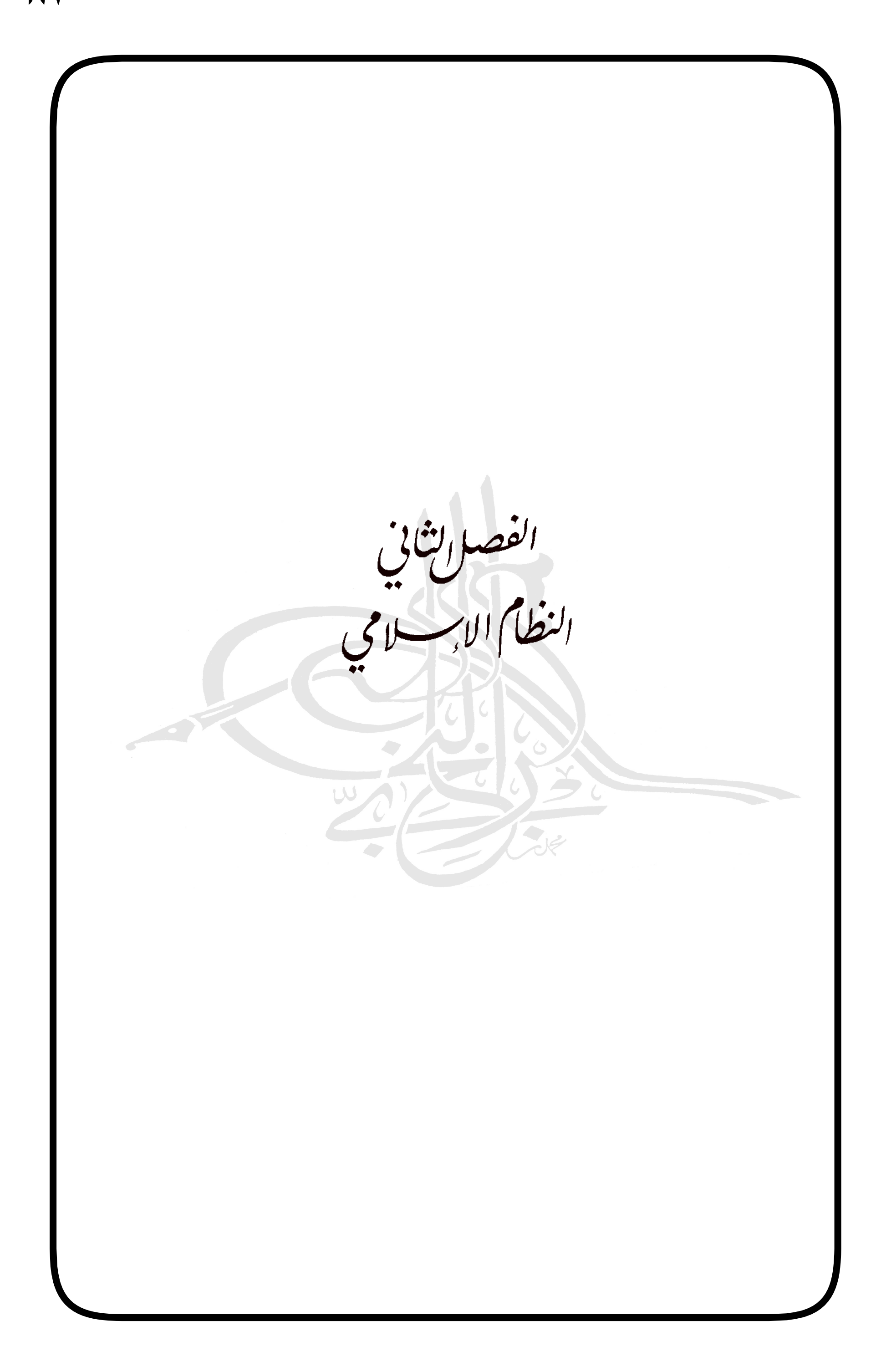
وتوجد في التاريخ الحديث أمثلة كثيرة على هذا الموقف رأيناها في تركيا عندما هبت للنضال التحريري ضد اليونان بعد الهزيمة التي لحقت بها خلال الحرب العالمية الأولى ، ورأيناها في المقاومة البطولية للشعب الليبي ضد الاحتلال الإيطالي ، ورأيناها في جهاد الفدائيين ضد الإنجليز في قناة السويس ، وفي حرب التحرير الجزائرية ، وفي تحرير أندونيسيا ، وفي الهيمنة الإسلامية في باكستان . وحيثما يُراد استثارة حماس الجماهير كانت ترفع

الشعارات الإسلامية حتى وإن كانت مؤقتة أو غير مخلصة . وهكذا أينما وُجِدَ الإسلامُ تختفي السلبية واللامبالاة .

إنَّ المشاعر القوية عند الجماهير المسلمة تحتاج إلى فكرة تحفزها وتوجهها ، ولكن لن تكون هذه مجرّد أي فكرة ، وإنما يجب أن تكون فكرة تتجاوب مع أعمق المشاعر الإسلامية ، ومن ثمَّ لا بد أن تكون فكرة إسلامية .

ولسنا نرى في الأوضاع الراهنة إمكانية حُدوث أي توافق بين الجماهير المسلمة وبين المثقفين والمفكرين والسياسيين المستغربين ، فلا أحد من الجانبين لديه الاستعداد لكي يتخلى عن مَوقفه مهما طالت حالة التوقع والحيرة ، ولكن هناك طريقًا واحدًا للخروج من الأزمة ، وهو تكوين نخبة جديدة تُفَكّر وتَشْعر إسلاميًّا ، هذه النخبة سترفع راية النظام الإسلامي مع الجماهير المسلمة وتتخذ الخطواتِ العمليةَ لتطبيقه .

❖ ❖ ❖ ❖



الفصل الثاني
النظام الإسلامي



الدّين والقانون

« النظام الإسلامي » .. ترى ما الذي نعنيه بهذه العبارة إذا التزمنا باللغة التي يُفَكّر بها الجيلُ الحالي ويتحدّث ويشعر بها ؟ إن أكثر التعريفات للنظام الإسلامي إيجازًا هي الوحدة بين الدّين والقانون ، بين التربية والسلطة ، بين المثل الأعلى والمصلحة ، بين الجماعة الروحية والدولة ، بين الإرادة والقوة .

والنظام الإسلامي باعتباره المركب من هذه المكوّنات جميعًا يفترض فرضين أساسيين : مجتمعًا إسلاميًّا وحُكْمًا إسلاميًّا ، الأول هو مادة النظام والثاني هو شكل هذا النظام ، فالمجتمع الإسلامي بدون السلطة الإسلامية مجتمع ناقص مُفتقر إلى القوة ، والحكم الإسلامي بدون مجتمع إسلامي إما أن يكون طوباويا خياليا ، وإما عُنفًا وقَهْرًا .

وبصفة عامة لا يوجد المسلم كشخص مُفرد ، . فإذا أراد أن يحيا وأن يستمر في البقاء كمسلم عليه أن يخلق بيئته ، أن يقيم جماعة ونظامًا . فالمسلم بين خيارين لا ثالث لهما : إما أن يُغَيِّر العالم وإما أن يَسْتَسْلم للتغيير .

ولم يحدث في التاريخ وجود حركة إسلامية حقيقية صادقة مع نفسها لم تكن في الوقت نفسِه حركة سياسية ؛ ذلك لأن الإسلام بطبيعته وإن كان دينًا إلا أنه في الوقت نفسِه فلسفة حياة كما أنه نظام أخلاقي وتنظيم وأسلوب ومناخ .. إنه – في كلمة واحدة – طريقة حياة متكاملة ، ولا يستطيع الإنسان أن يكون مؤمنًا بالإسلام ثم يتصرَّف ويَتَعَامل مع الناس ويستمتع بوقته أو يحكم بطريقة غير إسلامية. فهذه الحال المتنافرة تُورِّث النفاق (نحمد الله ونُثني عليه في المسجد ونُخَادعه خارج المسجد) ! إنها حالة تنتج أُناسًا تمزّقت نفوسهم

بالصراعات المهلكة ، فهم لا يستطيعون التنكر للقرآن من ناحية ، ولا يجدون في أنفسهم القدرة على الجهاد لتغيير الظروف التي يعيشون فيها من ناحية أخرى ، أو تنتج أُناسًا كالرهبان (ينسحبون من الدنيا ؛ لأن الدنيا ليست إسلامية) ، وهناك نوع ثالث من الناس شعروا بأَنْ المعضلة تطوّقهم من أقطارهم فانفكُّوا عن الإسلام وتقبّلوا الحياة والعالم كما وَجَدُوهما ، أو بالأحرى صَنَعَهُما لهم الآخرون .

النظام الإسلامي – على عكس ذلك – مجتمع متحرر من هذه الصراعات ، فهو إطار من العلاقات يجد المسلم فيه نفسه على اتِّساق مع بيئته .

فإذا سأل سائل : ما المجتمع المسلم ؟ نقول : إنه المجتمع المؤلف من المسلمين ، ونعتقد أننا بهذه العبارة نجيب على السؤال إجابة كاملة أو قريبة من الكمال .

ويَعْني هذا التعريف أنه لا يُوجد نظام مؤسسات وعلاقات وقوانين منفصلاً عن الناس الذين هم هدف هذا النظام ثم يُقال إن هذا نظام إسلامي ، فلا يوجد نظام إسلامي ولا غير إسلامي قائم بذاته ، وإنما يكون النظام إسلاميًّا أو غير إسلامي فقط بالناس الذين يُؤلفون هذا النظام .

يُؤمن الأوربي بأنه في الإمكان تنظيم المجتمع بقوة القانون . فمنذ جمهورية أفلاطون وما تلاها من أفكار طوباوية بما في ذلك الاشتراكية الماركسية – منذ ذلك الزمن البعيد إلى الآن والروحُ الأوربيةُ دائبةُ البحثِ عن نموذج واحد يمكن بواسطته تغيير العلاقات بين الناس والجماعات لإيجاد مجتمع مثالي .

أما القرآن فإنه يشتمل على عَدد قليل من القوانين (الأحكام) بينما ينْصَبّ في معظمه على العقيدة ومبادئ الدين ، مع حفز للمؤمنين على أن يتخذوا من الإجراءات العملية لإقامة حياتهم ومجتمعهم على أساس من هذه المبادئ .

إنَّ كثرة القوانين في مجتمع ما وتَشَعُّبها والتعقيدات التشريعية علامة مؤكدة على وجود شيء فاسد في هذا المجتمع ، وفي هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء في تعليم الناس وتربيتهم . فعندما يتجاوز الفساد في بيئة ما حَدًّا معيّنًا يُصبح القانون عقيمًا ، فيسقط في يد فئة فاسدة من مُنَفّذي العدالة ، أو يصبح خاضعًا للتحايل الظاهر أو الخفيّ من جانب بيئة فاسدة .

لقد كانت الخمر والميسر والشعوذة رذائل مُتَفَشِّيةً وعميقةَ الجذور في بلاد العرب أيام الجاهلية ، فلما جاء الإسلام قضى عليها القرآنُ بآية واحدة وبتفسير واحد : (إن الله قد حرَّم هذه الرذائل جميعًا)(٥٥) ، ولكن ما أَن ضَعُف الدين حتى عادت هذه الرذائل بكامل قُوّتها ولم يعق تفاقمها ارتفاع المستوى الثقافي الذي حققته هذه المجتمعات ، كما لم يُفلح قانون تحريم الخمر الأمريكي الذي أُعْلن باسم العلم الحديث والذي قامت على تنفيذه - بكل قوتها - مجتمعات على أكبر درجة من التنظيم في العالم ، ولكنها أُجْبِرَت في النهاية على التَّخَلِّي عن هذه القوانين في الأربعينيات من هذا القرن بعد محاولات لا جدوى منها كانت حافلة بالعنف والجرائم . ولقد جَرَتْ محاولةٌ مثيلة لتحريم الخمر في الدول الإسكندناوية انتهت هي أيضًا بالفشل الذريع .

تلك وأمثلة أخرى تعرض لنا بوضوح أن المجتمع لا يمكن إصلاحه إلا

---

(٥٥) ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

باسم الله وعن طريق تعليم الإنسان وتربيته ، وعلينا أن نسلك الطريق الذي يؤدي بنا إلى هذه الغاية .

إنَّ الإسلام - رغم أنه يُؤَكِّد على المدخل الروحي الجوَّاني(٥٦) في كل تعاليمه إلا أنه لم يتوقف عند هذا الحد ، وإنما اتجه لتحطيم السلاح الذي يُمسك به الشيطان . إن الإسلام إذا لم يبدأ بالإنسان في الأُمور التي تتعلق بعلاقة الإنسان بالعالم فإنه لا يكون « دينًا » ، ولكن أن يقف هذه النقطة فقط فإنه يُصبح دينًا مجرَّدًا ، أو يكون مجرد تكرار أو إعادة لتعاليم عيسى - عليه السلام - التي تُركّز على الجانب المثالي والخالد في الكائن الإنساني .

لقد جمع الإسلام في خطابه بين الإنسان الحيّ المتكامل كما صوَّره القرآن وتمثَّل في حياة الرسول محمد ﷺ ، وبين الطبيعة أو العالم الخارجي ، فكان بذلك تعبيرًا عن الإنسان الكامل وعن الحياة في جميع وجُوهها . وفي هذا الإطار توحَّد الإيمان مع القانون وتوحَّد التعليم والتربية مع السلطة ، وبذلك أصبح الإسلام نظامًا .

* * *

---

(٥٦) « الجوانية » مصطلح ظهر لأول مرة في محاضرات الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة في الخمسينيّات ثم صاغه في كتاب سمّاه « الجوانية » ويقصد بهذا المصطلح كل ما هو جوهري وأصيل بالنسبة للإنسان باعتباره كائنًا أخلاقيًا حرًّا ومسئولًا في مقابل ما هو « برّاني » أي ما هو ظاهري وزائف في حياة الإنسان . « المترجم » .

ليس الإسلام مجرّد دين

يمثل الإسلام في تاريخ تطور الأديان نقطة تحوّل لا جدال فيها ، فهو يختلف عن غيره من الأديان والمذاهب والفلسفات جميعًا ، لقد جاء الإسلام بمَدْخل يعكس فلسفة جديدة كل الجدّة . تتطلب هذه الفلسفة من الإنسان أن يَحْيَا - في وقت واحد - حياته الجوّانية والبرّانية ، الحياة الأخلاقية والحياة الاجتماعية ، الحياة الروحية والمادية معًا ، وبدقة أكثر تقتضي هذه الفلسفة من الإنسان أن يتقبل بوعي كامل وإرادة كاملة جميع جوانب هذه الحياة باعتبار أنها تحقق إنسانيته ، وتؤكد المعنى الحقيقي لحياته في هذه الدنيا :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣١ ، ٣٢] . ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وبترجمة هذا إلى لغة الحياة اليومية يمكن أن نقول : إن الذي يُؤْمن بأن الحياة يجب تنظيمها - ليس بالإيمان والصَّلاة فحسب ولكن أيضًا - بالعلم والعمل ، والذي تتسع رؤيته للعالم بحيث يستوعب بل يدعو إلى قيام المسجد والمصنع جنبًا إلى جنب ، والذي يرى أن الشعوب لا يكفي إطعامها وتعليمها فقط ، وإنما يجب أيضًا تيسير حياتها والمساعدة على سُمُوها الروحي ، وأنه لا يوجد مبرر للتضحية بأحد هذه الأهداف في سبيل الآخر . هذا الإنسان ينتمي حقًّا إلى الإسلام .

فإذا أضفنا إلى ذلك « الإيمان بالله » تمثلت أمامنا الرسالة الأساسية للقرآن التي تنطوي على الإسلام في جملته ، وما عدا ذلك إنما هو تفصيل للمُجْمَل وبيان له .

هذا « السيناريو » الإسلامي ـ إلى جانب اشتماله على مبدأ النظام الإسلامي ـ يُؤَدِّي اقتران الدين والسياسة فيه إلى نتائج أخرى بارزة ذات أهمية مبدئية وعملية كبرى .

أول هذه النتائج وأهَمُّها هي بالتأكيد تَنَافُر الإسلام مع أي نُظم « لا إسلامية » ، فلا يمكن أن يوجد سلام أو تَعَايُش بين الدين الإسلامي والمؤسسات الاجتماعية والسياسية اللا إسلامية .

ولقد كان إخفاق هذه المؤسسات في عملها وعدم استقرار أنظمة الحكم في البلاد المسلمة ـ كما يتضح في التحولات والانقلابات العسكرية المتوالية ـ هو في الأغلب نتيجة لمُجَافاتها لروح الإسلام الذي يشكل أعمق المشاعر وأكثرها أصالة عند الشعوب في هذه البلاد .

إنَّ الإسلام وهو يؤكّد حقَّه في تنظيم دياره بنفسه من الواضح أنه يستبعد أي إيديولوجية أجنبية تحاول العمل في مجاله الحيوي الخاص . ومن ثمَّ فلا مكان للعلمانية[٥٧] في ساحة الإسلام ، وعلى الدول (المسلمة) أن تلتزم بمفاهيم

(٥٧) نحيل القارئ إلى هامش رقم (٦) بنفس الفصل ، ونشير أيضًا إلى مقال للدكتور مصطفى النشار الذي نُشر بعدد الأهرام الصادر في ١٦ يناير ١٩٩٤ تحت عنوان « التنويريّون العرب وأهدافهم الحقيقية » فهو يرى أن هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم بالتنويريين يشنون حملة ضد الإسلام وضد الإسلاميين بصفة عامة تحت ستار زعمهم بأنهم يحاربون فقط بعض الإسلاميين وأفكارهم الهدامة ، وقد ظهر مؤخرًا كتاب يكشف عن مفارقات مُذْهلة للوجه الحقيقي القبيح للعلمانيين العرب ، ويناقش أفكارهم ومواقفهم وأهدافهم ، ولا ننسى أن نلفت نظر القارئ إلى ضرورة التفرقة فيما بين هؤلاء العلمانيين ، فمنهم المعتدلون والمتطرفون والغلاة . انظر كتاب فهمي هويدي « المفترون : خطاب التطرف العلماني في الميزان » ، القاهرة : دار الشروق ١٩٩٦ . « المترجم » .

الأخلاق الدينية وأن تقوم بتعزيزها .

تلك هي أول نتيجة لِفَهْم الإسلام كنظام متكامل ، أما النتائج الثلاث الباقية التي قد تُساويها في الأهمية ، وإن كانت أقل درجة في حصرها ، فنلخصها فيما يلي :

أولًا : عندما تَوَجَّه الإسلام إلى هذه الدنيا أمرنا بتنظيمها على أحسن طراز ممكن من التنظيم ، فلا شيء يمكن أن يجعل الدنيا أفضل حياة ثم يرفضه المسلم بدعوى أنه غير إسلامي .

ثانيًا : أن تنفتح على الطبيعة ، معناه : أن تنفتح على العلم والمعرفة ، ولكي يكون الحل إسلاميًا لابد أن يتحقق فيه شرطان ؛ أن يكون على أكبر درجة من الكفاءة وعلى أقصى درجة من الإنسانية في الوقت نفسِه ، ومن ثم لا بد أن يعكس تَوَافقًا على أعلى مستوًى بين العلم والدين .

ثالثًا : إنَّ الإسلام بما تنطوي عليه طبيعته من تَزَاوج بين الدين والعلم .. بين الأخلاق والسياسة .. بين الفرد والمجتمع .. بين الروحي والمادي (وتلك هي القضايا التي تشطر العالم بلا رحمة إلى شطرين متصارعين) - هذا الإسلام يستعيد دوره كفكر وسط بين الأفكار المتنازعة ويستعيد العالم الإسلامي من دوره كأمة وسط في هذا العالم المنقسم على نفسه - إنَّ الإسلام وهو الذي يُبَشّر بدين يخلو من الأساطير وبعلمٍ يخلو من الإلحاد يمكن أن يكون مثار اهتمام الناس جميعًا من كل لون وجنس .

* * *

إشكاليات النظام الإسلامي
في الوقت الرَّاهن

توجد مبادئ إسلامية لا تتغيّر هي التي تحدد العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والجماعة ، ولكن لا توجد نظم إسلامية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية منزّلة ، فالمصادر الإسلامية لا تحتوي على أيّ وَصْفٍ لهذه النُّظم . وستختلف الطريقة التي سَيُدير بها المسلمون اقتصادهم ويُنَظِّمون بها مجتمعهم ويدبرون شؤون الحكم في المستقبل عن الطريقة التي أداروا بها الاقتصاد ونَظَّموا المجتمع وحكموا في الماضي . ومهمّة كل جيل فى كل عصر أن يستحدث من الطرق والوسائل لتطبيق المبادئ الأساسية للإسلام ، التي لا تتغير في عالم لا خُلُود فيه بل خاضع للصيرورة الدائمة .

وعلى جيلنا أن يتقبَّل المخاطرة وأن يقوم بالمحاولة .

ولأنني على وَعْي بقصور التعريفات المتعلقة بهذه المبادئ لذلك أحصر مهمتي في إطار عرض للمبادئ التي تبدو الآن ذات أهمية كبرى بالترتيب التالي :

(١) الإنسان الفرد والجماعة :

المجتمع الإسلامي جماعة منظمة من المؤمنين . وليس ثمة خلاص خارجي للإنسان والمجتمع باسم العلم أو الثورة أو الاشتراكية . فأيُّ خَلاصٍ لا يتضمن تحوّلًا نحو حياته الجوانية وإعادة تشكيل الإنسان وتجديد حياته الروحية هو خلاص مزيّف .

المجتمع الإسلامي لا يمكن إقامته على أساس من المصالح الاقتصادية والاجتماعية فحسب ولا على أيّ أساس خارجي تِقنيّ آخر ؛ ذلك لأن هذا

المجتمع يتضمن في بنيته على عنصر ديني ووجداني للانتماء . ويبدو هذا العنصر أكثر ما يكون وضوحًا في « الجماعة » الروحية باعتبارها النواة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي .

فعلى خلاف المجتمع التجريدي الذي يرتبط الأعضاء فيه بعلاقات برّانية ، نجد أن الجماعة (الإسلامية) مجتمع جُواني حقيقي يقوم على أساس من العضوية الروحية ، حيث العلاقة فيه بين الناس هي علاقة تآلف شخصي مباشر ، فهي علاقة إنسان بإنسان وليست علاقة عضو مجهول في مجتمع تجاه عضو آخر مُساوٍ في المجهولية(٥٨) ، إن الجماعة - كوسيلة للتعارف والتقارب بين الناس - تُسْهِم في توحيد المجتمع وإشاعة الأُلْفة فيه ، كما تُساعد على تبديد الشعور بالعزلة والاغتراب الناتج من التوسع في استخدام التطبيقات التقنية والحياة الحضرية المتنامية .

وفضلًا عن ذلك تَخْلُق الجماعة نوعًا من الرأي العام يعمل دون اللجوء إلى العنف - ولكن بفاعلية - ضد من تُحَدِّثُه نفسه بالخروج على المعايير الاجتماعية والأخلاقية . في الجماعة لا يوجد أحد بمفرده ، وهذه حقيقة ذات معنيين ؛ فالإنسان ليس وحده يفعل ما يَحْلُو له ، ولا وهو وحده محرومًا من المؤازرة المادية والمعنوية . فإذا لم يشعر مسلم بأنه قريب من الآخرين فذلك يعني أن المجتمع المسلم قد أخفق (في تحقيق الأخوة الإسلامية) .

يُريد الإسلام أن يمد الإنسان يد العون إلى أخيه بطريقة عفوية مخلصة . وإلى أن يتحقق هذا لا يصحُّ أن نعتبر أنفسنا قد كسبنا شيئًا في إسلامنا على

(٥٨) لمزيد من التفصيل في التفريق بين المجتمع والجماعة . انظر كتاب : « الإسلام بين الشرق والغرب » للمؤلف ، ص ٢٥٠ .

وجه الحقيقة .

إنَّ الإسلام لا يتلاءم مع موقف يتوجّب فيه على الدولة أن تتدخل – بصفة دائمة – بقوتها لحماية الناس بعضهم من بعض ، فذلك وَضْعٌ قد يقبله الإسلام بصفة مؤقتة وتحت ظروف معينة ، فالقوة والقانون أداتان للعدالة ، أما العدالة نفسها فهي في قلب الإنسان ، فإذا لم توجد فيه فلا وجود لها على الإطلاق .

(٢) المساواة بين الناس :

لقد قرَّر القرآن حقيقتين على درجة قصوى من الأهمية ، هما وحدانية الله والمساواة بين الناس . قرر القرآن هاتين الحقيقتين بوضوح وصراحة لا لبس فيهما بحيث لا يمكن تفسيرهما إلا تفسيرًا حرفيًّا واحدًا ، وأنه لا يوجد شعب مختار أو جنس أو طبقة متميزة – فالناس جميعا سواسية .

إنَّ الإسلام لا يقبل تقسيم الناس أو تصنيفهم طبقًا لمواصفات خارجية موضوعية كالطبقة . فالإسلام باعتباره حركة دينية أخلاقية يرى أنه من غير المقبول وجود أي تمييز بين الناس لا ينطوي على معيار أخلاقي .

فإذا كان الناس مختلفين حقًّا فإنه يجب التمييز بينهم على أساس من هم على وجه الحقيقة ؟ أعني التمييز بينهم من حيث قيمتهم الروحية والأخلاقية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فجميع الناس المستقيمين بصرف النظر عن الطريقة التي يكسبون بها قُوتهم اليومي ينتمون إلى جماعة واحدة ، كما ينتمي جميع الأشرار والفاسدين إلى طبقة واحدة بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية أو مواقعهم في العمل .

إن التمييز الطبقي شأنه كشأن التمييز العنصري وغيره من أشكال التمييز المختلفة بين الناس – غير مقبول سواء من الناحية الأخلاقية أو الإنسانية .

(٣) الأخوة بين المسلمين :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

إنَّ القرآن بهذه الرسالة يشير إلى غاية – لبعد مداها – تعتبر مصدر إلهام للتقدم الإنساني المستمر . ولكي نُقَصِّر المسافة إلى الأخوّة المنشودة لا بد من إحداث تغييرات هائلة في داخل الناس وخارجهم .

إننا نرى في مبدأ الأخوّة حق المجتمع الإسلامي والتزامه بإقامة المؤسسات المناسبة واتخاذ الإجراءات التي تمكِّن العلاقة بين المسلمين والحياة العملية من استيعاب المزيد من عناصر الأخوّة وملامحها . إنَّ أنواع وعدد الإجراءات والمبادرات والقوانين التي يمكن للإدارة الإسلامية الحقّة أن تقوم بها – في إطار الأخوّة الإسلامية – لا حَصْر لها .

ونُشير هنا إلى نموذج يقف على النقيض من نموذج الأخوّة الإسلامية ألا وهو النظام الإقطاعي وهو نموذج متطرّف ، فالعلاقة في هذا النظام بين التابع وسيّده الإقطاعي ليست علاقة أخوّية ، وإنما هي علاقة عبودية ، وهي بهذا الاعتبار علاقة متناقضة مع القرآن تناقضًا صريحًا ، كما أنها متناقضة مع مبدأ الأخوّة والمساواة الذي يدعو إليه القرآن .

(٤) وحدة المسلمين :

يشتمل الإسلام على مبدأ الأُمَّة بمعنى التوجه لتوحيد جميع المسلمين في

جماعة واحدة من الناحية الدينية والثقافية والسياسية . ولا يعتبر الإسلام جنسية لهذه الجماعة ، وإنما هو أسمى من ذلك بالنسبة لها .

وكل ما يبثُّ الفُرقة والنزاع بين أعضاء هذه الجماعة سواء ما كان منه مُتَّصلًا بالأفكار « كالفرق والمذاهب والأحزاب وغيرها » ، أو مُتَّصلًا بالأشياء المادية « كالتفاوت الهائل في الثروة أو المراكز الاجتماعية وغيرها » فهو مُخَالف لهذا المبدأ ، ومن ثَمّ فمن الواجب تقييده أو إلغاؤه .

ثمة عنصران جوهريان يحددان الخط الفاصل بين الاتجاهات الإسلامية والنَّزعات المضادة للإسلام في حاضر العالم المسلم . هذان العنصران هما الإسلام أولًا ثم الجامعة الإسلامية ثانيًا . وتكون الجماعة أقرب إلى الإسلام كلما خَضَعت في تنظيم علاقاتها الداخلية للإسلام ، وفي علاقاتها الخارجية لفكرة الجامعة الإسلامية . وبذلك يصبح الإسلام عقيدتها والجامعة الإسلامية سياستها .

(٥) المِلكيَّة :

رغم أن الإسلام يُقرُّ الملكية الخاصة إلا أن المجتمع الإسلامي الجديد ينبغي عليه أن يُعْلِن بوضوح لا لبس فيه أن جميع مصادر الثروة العامة وعلى الأخص المصادر الطبيعية يجب أن تكون ملكًا للمجتمع وأن تخدم مصالح أعضاء المجتمع كافة . ورقابة المجتمع على مصادر الثروة أمرٌ مُهِمٌّ لمنع تكديس الثروة والقوّة لدى الأفراد بغير وجه حق ، ومن ناحية أخرى لضمان الموارد المالية اللازمة لبرامج التنمية في مختلف المجالات التي سيضطلع بها المجتمع ، تمشيًا مع الدور المتعاظم الذي تقوم به المجتمعات « الحديثة » . على الرغم من الاختلاف في النظم والتطبيقات تسهم المجتمعات المختلفة في

عدد متزايد من المشروعات العامة الكبرى ، سواء في الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي [سابقًا] أو السويد .

ويدلُّنا هذا على أن المسألة لا تتعلق بإيديولوجية أو نظام سياسي معين ، وإنما هي الضرورة التي انبثقت من تطور حياة المجتمعات الإنسانية في العالم المعاصر .

وتخضع الملكية الخاصة لِقَيْدٍ آخر استنادًا إلى تعاليم القرآن ألا وهو ضرورة استخدامها في الصالح العام : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

فالإسلام لا يعترف بالملكية الخاصة « المطلقة » بمفهومها في القانون الروماني وإنما على النقيض من ذلك ، حيث تحرّم الشريعة الإسلامية « سُوء استخدام الملكية » وتُلْزِم صاحبها « باستخدام ثروته في الصالح العام » ، والنتائج العملية لهذا الفرق بعيدة المدى بالنسبة للسلطة الإسلامية الحقيقية . واستنادًا إلى هذه الحقيقة وإلى ما قرّره القرآن في الآية السابقة يمكن اتخاذ جميع الاحتياطات القانونية والإجراءات العملية ضد سُوء استخدام الملكية أو اكتناز الثروة وحَجْبها عن الاستخدام .

ستصبح محاربة الظلم وعدم المساواة وعلى الأخص محاربة الترف والبذخ الذي يستفحل وَسَط البُؤْس والفقر « باعتبارهما من عوامل تدمير المجتمع وتمزيق وحدته » ، ستصبح معيارًا لبقاء النظام ومقياسًا للقيم الحقيقية للموقف الأخلاقي والاجتماعي الذي يُمَثله .

(٦) الزكاة والربا :

من الأحكام الإسلامية القطعية التي لها طابع اجتماعي : فريضة الزكاة

وتحريم الربا .

تقرّر الزكاة مبدأ المسئولية المتبادلة بين المسلمين ووجوب اهتمام الناس بمصير بعضهم بعضًا . وطالما قد تقرّر هذا المبدأ فإنه يصبح بذلك أساسًا لصور جديدة مختلفة من صور الرعاية ، تتلاءم مع درجة تطور المجتمع وتنوع حاجاته والاحتمالات الطارئة .

في عالم المسلمين اليوم أصبحت الزكاة تُعتبر شأنًا من الشؤون الخاصة بالأفراد ، وفي المناخ الاجتماعي والديني الراهن توقفت الزكاة عن أداء وظيفتها الصحيحة ولم تعد تؤتي ثمارها المنشودة . وأصبح غياب الزكاة واضحًا في كل مجال من مجالات الحياة .

أما في النظام الإسلامي ، فتُعتبر الزكاة قانونًا عامًّا لا بد من ضمانٍ لأدائها بكل الوسائل المتاحة ، بما في ذلك استخدام القوة إذا لزم الأمر .

وبتحريم الربا تقرر مبدأ من مبادئ النظام الإسلامي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

ويتضمَّن هذا المبدأ تحريم أي دخل من الفوائد المحددة سابقًا ، وتحريم أساليب الحياة الطفيلية ، أعني اكتساب الثروة استنادًا إلى مجرد الحيازة مما يتنافى مع الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها النظام الإسلامي .

(٧) المبدأ الجمهوري :

فيما عدا الملكية لا يعترف الإسلام بأيّ مبدأ للإرث ، ولا أيّ سلطة ذات

امتياز أو حقوق مطلقة .

فالإقرار بالسلطة المطلقة لله يعني الإنكار المطلق لكل سلطة أخرى مطلقة : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٣] . ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

ويقول [النبي] محمد ﷺ : « لا طَاعة لمَخْلوق في مَعْصية الخالق » .

نستطيع أن نتبين في تاريخ عهد الخلفاء الراشدين الأربعة (ولعله العهد الوحيد الذي شهد نظامًا إسلاميًّا أصيلًا) ثلاثة وجوه أساسية من المبدأ الجمهوري في الحكم :

١ـ رئيس دولة مُنتخب .

٢ـ مسئولية رئيس الدولة أمام الشعب .

٣ ـ التزام كل من رئيس الدولة والشعب معًا بالعمل في الشؤون العامة للمجتمع .

وقد صرح القرآن بذلك تصريحًا واضحًا في هذه الآية : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وفي آية أخرى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨] .

إنَّ الخلفاء الأربعة الأوائل في التاريخ الإسلامي لم يكونوا مُلوكًا ولا أَبَاطرة ، وإنما تم انتخابهم بواسطة الأمة ، أما الخلافة الموروثة فكانت إهْدارًا لمبدأ الانتخاب الذي تأكّد بوضوحٍ كنظام سياسي إسلامي .

(٨) لا إله إلا الله :

كلما سلّمنا بأن إقامة نظام إسلامي هدف لا جدال فيه ولا مَنَاص منه ازداد يقينُنا برفض عِصْمة الشخصيات العامة بصرف النظر عن جَدَارتهم وفَضْلهم وعن المراكز التي يشغلونها في المجتمع . والنظام الإسلامي – بهذا المعنى – مُرَكّب من سلطة مطلقة « بالنسبة للبرنامج » ومن ديمقراطية مطلقة « بالنسبة للفرد »(٥٩) .

ولا يعترف الإسلام بوجود إنسان كلّي المعرفة كُلِّيِّ الرؤية معصوم من الخطأ وخالد . إنَّ محمدًا ﷺ لم يَدَّعِ لنفسه هذه المكانة . بل إنه قد عُوتب من ربه في أكثر من موضع بالقرآن كما في هذه الآية : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس : ١ - ١٢](٦٠) .

والقرآن من هذه الناحية كتاب واقعي لا يُكَرِّس البطولات « الأسطورية » أما ظاهرة عبادة الأشخاص التي سادت شرقًا وغربًا سواء في الماضي أو الحاضر فهي ظاهرة غريبة عن الإسلام بصفة مطلقة إذ إنها في الحقيقة نوع من الوثنية

---

(٥٩) يقصد المؤلف أنه في إطار النظام الإسلامي تكون الهيمنة المطلقة لمبادئ الإسلام وأما بالنسبة للأفراد الذين سيتصدرون القيادة السياسية في هذا النظام فسوف يتم انتخابهم بطريق الاقتراع الحر من جانب جميع أبناء الأمة . « **المترجم** » .

(٦٠) وهناك آيات أخرى في هذا المجال : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣] ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

التي حرمها القرآن : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

إنَّ المعيار الصحيح لقيمة الإنسان يتمثَّل في حياته الشخصية وفي مقدار ما يقدّمه للمجتمع بالنسبة لما يأخذ منه .

أما التعظيم والثناء فينبغي أن نتوجّه بهما لله وحده ، وهو سبحانه وحده القادر على أن يحكم على قيمة الإنسان وفضله .

(٩) التربية :

لما كان الدين هو الأساس في المجتمع الإسلامي ، فإن التربية لا تعتبر فقط إحدى وظائفه وإنما هي لبُّ وجُوده وبقائه ، إنها فوق كل شيء ، تربية دينية وأخلاقية تبدأ في الأسرة وتستمر خلال جميع المراحل الدراسية .

وأمام النظام الإسلامي مهمّة خاصة عليه أن ينهض بها ، ألا وهي القضاء على جميع أشكال التربية الخاطئة .

إن الإسلام يُحرِّم أُمورًا ، وعلى النظام الإسلامي أن يتخذ جميع الإجراءات اللازمة للقضاء عليها ، وهي كالآتي :

- جميع أنواع المسْكرات والمخدرات .
- الدَّعارة العلنية والسِّرِّية .
- الإباحية في الكلمة المنطوقة وفي الصور والأفلام والتليفزيون .
- أندية القمار والأندية الليلية وصالات الرَّقص وغيرها ، من أنواع اللهو التي تتعارض مع التعاليم الأخلاقية للإسلام .

(١٠) التعليم :

تعليم الجيل الجديد يُعتبر جزءًا مُهِمًّا من هذه التربية المتكاملة . فالتعليم – مع الوحدة – هو العامل الحاسم الثاني للإسراع في تحرير العالم المسلم من أوضاعه المتردّية في الوقت الراهن .

إن البلاد المسلمة تفتقر إلى رأس المال الكافي . ولذلك ينبغي عليها أن تستثمر ما لديها في أعظم مجالات الاستثمار عائدًا ، ألا وهو التعليم .

فلا يمكن أن يقوم استقلال صحيح بدون المَقْدِرة على تطبيق التقدمات العلمية واستخدامها والاستمرار في تطويرها . عندما ظهر الإسلام أخذ المسلمون في عهودهم الأولى على عاتقهم دراسة وتجميع التراث العلمي الذي خلّفته الحضارة السابقة ، فعل المسلمون ذلك دون تَعَصُّب ولا خوف ، فما بالهم اليوم يعجزون عن اتخاذ الموقف نفسِه تجاه الحضارة الأوروبية – الأمريكية التي يشتركون معها في حدود طويلة ! .

ليس السؤال المطروح هو ما إذا كنا نُريد أو لا نريد قبول العلم والتكنولوجيا ، فلا مَفَرّ من قبولهما إذا كنا نحرص على البقاء ، وإنما السؤال هو ما إذا كنا سنفعل ذلك بطريقة إبداعية أم بطريقة ميكانيكية ، بشرفٍ وعزّة أم نتيجة شعور بالدونية ؟

السؤال هو – في هذا التطور الحتمي – : هل تضيع هويّتنا أم أننا سنحافظ على شخصيتنا وعلى ثقافتنا وقيمنا ؟

في ضوء هذه الحقائق يمكننا القول واثقين : إن التعليم في العالم المسلم الراهن هو أكثر المؤسسات حاجة إلى تغيير جذْريّ حاسم من ناحية الكيفية والكمية . أما من الناحية الكيفية ، فَلِكَيْ يتحرر التعليمُ من التّبعية الروحية وفي

بعض الحالات من التبعية المادية للأجانب ، ولكي يبدأ في خدمة التربية لجميع المسلمين شُعوبًا وأعضاءً في المجتمع الإسلامي .

ومن الناحية الكمية لا بد من القضاء على العجز المزمن « في المدارس » في أقصر وقت ممكن ؛ وذلك لخلق الظروف المواتية لإتاحة التعليم لجميع الناشئة ولجميع الفئات السكانية .

ويمكن للمساجد أن تقوم مؤقتًا بدلًا من المدارس في أداء هذه الخدمة . فإذا لم نفشل في برامجنا التعليمية فلن نفشل في أي مجال آخر .

(١١) حرية الضمير :

إن تربية الشعب – وعلى الأخص خلال وسائل الإعلام الجماهيرية كالصحافة والراديو والتلفاز والسينما – ينبغي أن تكون في أيدي أناس يتمتعون بأخلاق إسلامية لا غبار عليها ، ويتميّزون بقدرات فكرية رفيعة . إن هذه الوسائل لا ينبغي أن نسمح لها أن تقع – كما نلاحظ غالبًا – في أيدي أناس مَارقين مُنْحَلّين ينقلون سَخَف حياتهم وفراغها إلى الآخرين ، وإلا فما الذي يمكن أن نتوقعه إذا كان كلّ من المسجد والتلفاز يحاول أن يبلّغ الناس رسالة متناقضة مع رسالة الآخر ؟

ولا يعني هذا على الإطلاق أن النظام الإسلامي يفرض دكتاتورية روحية حيث تقوم السلطة ببث حقائق جاهزة لتنشئة شباب تافه فاقد للشخصية ، وإنما يعني فحسب أن ثمّة مبادئ أولية وقواعد أساسية للسلوك لا بد من احترامها في كل الظروف .

لقد أعلن الإسلام حرية الدين كمبدأ ، ومن ثم فإنه يرفض أي نوع من

الإكراه في مسألة الإيمان والضمير ، سواء أكان هذا الإكراه ماديًّا أم نفسيًّا ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وأكثر من هذا فإن مبدأ الإجماع يجعل الإكراه أمرًا لا لزوم له فقد قال محمد ﷺ : « لا تجتمع أُمَّتِي على خطأ » .

ومهما كان تشدّد الإسلام من الناحية الأخلاقية فإن انفتاحه على الطبيعة وعلى مسرّات الحياة يجعله دين حرية الفكر كما يشهد بذلك تاريخ الإسلام في كل العصور .

ولأن الإسلام دين يؤمن بالله ولا يقرّ المذهبية المغلقة ولا يقر سلطة الإكليروس (رجال الدين) فإن الإسلام لا يمكن أن يتحوّل إلى نظام دكتاتوري مُسْتبد ، ومن ثم فلا مجال فيه لمحاكم التفتيش والاضطهاد أو الإرهاب الروحي .

(١٢) الإسلام والاستقلال :

لا يقوم نظام إسلامي دون استقلال وحرية ، وبالعكس لا توجد حرية أو استقلال دون إسلام . وهذا الشق الثاني « من القضية » ينطوي على معنى مزدوج :

المعنى الأوّل : أن الاستقلال لا يكون استقلالًا حقيقيًّا ودائمًا إلا إذا كان نتيجة لتحقيق الاستقلال الروحي والفكري ، وكان علامة على أن شَعْبًا قد وجد هُوِيتّه واكتشف قوتَه الجوّانية ، فَمِنْ دُون ذلك يصبح الاستقلال الذي حصل عليه فارغًا من المعنى غير قابل للاستمرار .

إنَّ الشعب المسلم بتأكيده على ممارسة الفكر الإسلامي في حياته العملية

يرى في هذا تطابقًا مع ذاته ، كما يرى تحرره الروحي شرطًا لتحرره الاجتماعي والسياسي .

المعنى الثاني : أن الدَّعم الحقيقي الذي يمنحه الشعب المسلم لأيّ نظام في السلطة يتناسب تناسبا طرديًا مع مقدار ما يتمتع به هذا النظام من طابع إسلامي ، وكلما ابتعد النظام عن الإسلام قلّ دعم الشعب له . وهكذا تبقى الأنظمة المعادية للإسلام محرومة تمامًا من أي دَعْم شعبي ، ومن ثم تجد نفسها – طَوْعًا أو كُرْهًا – مجبورة على البحث عن هذا الدعم لدى القوى الأجنبية . ولذلك فإن التبعية التي تغرق فيها هذه الأنظمة هي نتيجة مباشرة لِتَوَجُّهاتها اللا إسلامية .

هذه الحقائق تحدد النظام الإسلامي على أنه نظام ديمقراطي . لا مجرد ديمقراطية شكلية ، بل ديمقراطية حقيقية تتمتع بإجماع الرأي . هذا النوع من الديمقراطية لا يوجد إلا حيث تصبُّ الحكومة فكرها وعملها في اتجاه تطلعات الشعب ، وحيث تتصرف كأنها تعبّر تعبيرًا مباشرًا عن إرادته . إن إقامة نظام إسلامي « في بلد مسلم » هو في الحقيقة عمل ديمقراطي على أرفع درجة من الديمقراطية ؛ لأنه يعني تحقيق أعمق التَّطلُّعات وأَعَزِّها لدى الشعب والأفراد على السواء . فثمة شيء واحد مؤكَّد – بصرف النظر عما تريده قلّة من الأثرياء والمفكرين – وهو أن عامة الشعب المسلم تريد الإسلام ، وتريد الحياة في مجتمع إسلامي . هنا لا تأتي الديمقراطية من مجرد المبادئ والشعارات ، وإنما تأتي من صميم الواقع . وفي هذا لا يلجأ النظام الإسلامي إلى العنف ؛ لأنه – ببساطة – لا حاجة له إلى العنف .

أما النظم « اللاإسلامية » فإنها تستشعر العداء والمقاومة من جانب الشعب ،

فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة ، ولذلك فإن تحوُّل هذه النظم إلى الدكتاتورية – آجلًا أو عاجلًا – هو القاعدة . إنَّه شرٌّ لا مفرَّ منه .

(١٣) العمل والجهاد :

على المجتمع الإسلامي أن يأخذ على عاتقه تعبئة الموارد البشرية والمصادر الطبيعية وأن يتخذ من الإجراءات ما يُشَجّع على العمل والنشاط .

إن بقاء المجتمع الإسلامي وقوته وضعفه يَخْضَع لسُنن العمل والكفاح التي تخضع لها المجتمعات الأخرى ، ولا يتمتع في هذا الصدد بأي امتيازات إلهية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

ولا بد من القضاء على آفتين نفسيتين في الرأي العام عندنا ألا وهما : الاعتقاد في المعجزات وانتظار المساعدة من الآخرين .

فلا توجد معجزات سوى تلك التي يُحَقّقها الناسُ بواسطة العلم والعمل ، ولا وجود « للمهدي المنتظر » الذي سيخلصنا من أعدائنا ويقضي على الشقاء وينشر النُّور والرخاء بعصا سحرية . وما رُكوننا إلى ذلك إلا تعبيرًا عن كَسَلنا ، أو على الأرجح هو تعبير عن أملٍ زائف نشأ من شعور باليأس ، عندما نكون في وضع تفوق فيه المشكلات والصعوبات التي تواجهنا كل ما لدينا من وسائل وإمكانات لمعالجتها .

فانتظار المساعدات الأجنبية صورة أُخرى من صور المعتقدات الخرافية ، فقد اعتدنا التَّطَلُّع خارج نطاق الدول المسلمة إلى أصدقاء غير أنانيين أو أعداء

ألدّاء ، ثم نطلق على هذا « سياستنا الخارجية » .

وعندما نتحقق أنه لا يوجد أصدقاء حقيقيون ولا أعداء حقيقيون ، وعندما نبدأ في توجيه لوم أكثر لأنفسنا على شقائنا ونُقَلّل من التَعَلُّل بـ « مخططات العدو الخبيثة » ، عندما نفعل ذلك سيكون هذا إيذانًا بأننا قد شرعنا في النضج ، وأن عهدًا جديدًا تقلّ فيه خيبة الأمل والحظ العاثر قد أقبل . وعلى أية حال حتى لو وُجِدَ أُناسٌ على استعداد لتقديم مساعداتهم إلينا دون أن يَطلبوا مقابل ذلك امتيازاتٍ سياسيةً أو ماديةً مُبالَغًا فيها . فليس هذا من شأنه أن يغيّر شيئًا من وَضْعِنا .

إنَّ الثروة لا يمكن استيرادها من الخارج ، بل لا بد من صنعها في داخل البلاد من خلال العمل والجهد . فكل ما نريد تحقيقه لا بد أن نعمله بأنفسنا ، فلا يُوجد من يستطيع أو يرغب أن يقوم به نيابة عنا .

وقاعدة كهذه لبرنامج من العمل والنشاط يمكن أن تكون أساسًا لأعلى مستوًى من التشجيع على الاستثمار ، فالثروات الطبيعية وإمكاناتها في العالم الإسلامي هائلة . إن إندونيسيا وحدها – وهي جزء من العالم الإسلامي – تعتبر ثالث أغنى منطقة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . أما العالم الإسلامي في مجموعه فيحتل المركز الأول في الثروة الطبيعية .

إننا بإعلان عهد الصحوة الإسلامية لا نبشر بعهد من السلام والدَّعَة بل نبشّر بعهد من القلق والمعاناة . فهناك أشياء كثيرة تستدعي القضاء عليها . ولن تكون هذه أيام رفاهية ، بل أيام احترام للذات . إنَّ الأمة النائمة لا تستيقظ إلا تحت وقع الضربات . وكل من أراد الخير بمجتمعاتنا لن يحاول أن يجنّبها الكدّ والمخاطر والصِّعاب ، وإنما عليه أن يبذل قصارى جهده لحملها على أن

تبدأ - في أسرع وقت ممكن - في استخدام قواها الذاتية ، واختبار جميع إمكاناتها واقتحام المخاطر . وفي كلمة واحدة : أَلَّا تنام وإنما تحيا وتنشط . فالمجتمعاتُ النشطة المتيقظة وحدها هي التي تستطيع أن تكشف نفسها وأن تهتدي إلى طريقها .

(١٤) المرأة والأسرة :

وضع المرأة في المجتمع المسلم لا بد من تغييره لكي يتلاءم مع مهمّتها كأم ومُعَلّمة طبيعية للأجيال الناشئة .

فالأم الجاهلةُ المُهْمِلة التَّعيسة لا تستطيع تنشئة أبناء وبنات قادرين على بعث النهضة في الشعوب المسلمة وقيادتها .

فلا بد « للمسلمين » من المبادرة بالاعتراف بالأُمومة كوظيفة اجتماعية ، والكف عن معاملة المرأة بالأسلوب التقليدي ، كأننا في « عصر الحريم » ، وليس لأحدٍ حق الاحتجاج بالإسلام للإبقاء على النساء محرومات من حقوقهن المشروعة ، فلا بد من وضع حَدّ لأي استغلال من هذا النوع .

ووجهة نظرنا هذه لا تمثل أفكار الحركة النسائية في الغرب ، التي تتكشف عن اتجاه إلى فرض قيم وأهواء وسيطرة عنصر فاسد من عناصر النساء ، كما أنها لا تمثل فكرة المساواة « المطلقة » بين الجنسين بالمعنى الأوروبي ، إنما هي تأكيد على إبراز القيمة المتساوية للرجل والمرأة .

ومبدأ القيمة المتساوية هو نتيجة مباشرة لقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة في الالتزامات الدينية والأخلاقية ، التي أشار إليها القرآن بوضوح في آيات كثيرة ، منها : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ

وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥](٦١) .

لقد حوَّلت الحضارة « الغربية » المرأة إلى شيء للاستمتاع به أو عبادته ، وفي كلتا الحالتين سَلَبَتْها شخصيتها التي بها وَحْدَها يمكن أن تكون موضع تقدير واحترام . وبإهمال هذه الحضارة للأمومة جُرّدت المرأة من وظيفتها الأساسية التي لا يمكن تعويضُها بأي شيء آخر .

وفي هذه الأيام حيث تشهد الأسرة أَزْمَة خطيرة(٦٢) ويجري التشكيك في قيمها ، يعود الإسلام ليؤكد انحيازه التام لهذا الشكل من أشكال الحياة الإنسانية .

فالإسلام إذ يَحْرص على تأمين عشّ الزوجية وتجنيبه عوامل التخريب الداخلية والخارجية « كالخمر والدعارة وانعدام المسئولية .. » ، فإنه يقوم عمليًّا بحماية المصالح المطلقة الحقيقية للمرأة السوية . وبدلًا من فكرة المساواة المطلقة يضمن الإسلام للمرأة المحبة والحياة الزوجية والأطفال وكل ما تَغْنِيه هذه الأمور الثلاثة للمرأة .

إنَّ قوانين الأسرة والزواج كما صِيغَتْ في القرون الأولى للإسلام تحتاج إلى

---

(٦١) وانظر أيضا القرآن في الآيات التالية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

(٦٢) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع انظر كتاب المؤلف « الإسلام بين الشرق والغرب » ، ص ص ٢٥٦ - ٢٦٥ .

مُراجعة بما يتلاءم مع متطلبات العصر وتطور الوعي الإنساني والاجتماعي . ويجب أن يكون الاتجاه نحو كبح تَعَدُّد الزوجات والعمل على تقييد الطلاق واتخاذ إجراءات أكثر فعالية لحماية المرأة والأطفال في كلتا الحالتين .

(١٥) الغاية لا تبرّر الوسيلة :

يجوز في الجهاد من أجل إقامة نظام إسلامي استخدام جميع الوسائل فيما عدا وسيلة واحدة ، ألا وهي الجريمة .

فلا أحد يَمْلك الحق لتشويه وجه الإسلام ولا الإساءة إلى هذا الجهاد باستعمال العنف الجامح والإسراف في استخدام القوة . وعلى المجتمع الإسلامي أن يؤكد من جديد أن العدالة أحد أسسه الراسخة .

إنَّ القرآن لم يأمرنا بحبّ أعدائنا ، ولكنه يأمرنا بطريقة صريحة قاطعة بأن نعدل معهم ، بل أن نعفو ونصفح عنهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] . فاستخدام القوة يجب أن يخضع لهذه المبادئ . لقد أدى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » إلى جَرَائم لا حَصْر لها[٦٣] . ولكن

(٦٣) بعد عشرين سنة من كتابة هذا الكلام وَقَعَت لشعب البوسنة المسلم أحداث رهيبة تَعَرَّض فيها لحرب إبادة اقترفت فيها القوات الصربية والكرواتية جرائم وحشية ضد المسلمين الآمنين باسم التطهير العرقي . وبرزت المكيافيلية على أشدّها من جانب السياسيين والعسكريين تجاه المسلمين . ومع ذلك فإن المقاتلين المسلمين بقيادة رئيسهم « علي عزت » مؤلف هذا الكتاب ، قد ظلّوا =

الغاية النبيلة لا يمكن الوصولُ إليها بوسائل دنيئة ، كما أن استخدام الوسائل الدنيئة من شأنه أن يَحُطّ من قيمة أيّ غاية ويُعَرّضها للخطر ، وكلما قويت أخلاقنا قَلَّتْ حاجاتنا إلى استخدام العنف .

فالعنف في « مجال العقيدة » سلاح يلجأ إليه الضعفاء ، وما لا يمكن تحقيقه بالقوة يمكن تحقيقه بالكرم والثبات والشجاعة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

(١٦) الأقليات :

النظام الإسلامي لا يمكن تطبيقُه إلا في الدول التي يكون المسلمون فيها هم الأكثرية العُظْمَى من السكان ، ومِنْ دُون هذه الأكثرية فإن النظام الإسلامي « إذا وُجدَ » يتدنى إلى مجرد قوة مُسَيْطرة ، حيث يفتقر إلى المجتمع الإسلامي « وهو شرطه الأساسي » وقد يتحوّل إلى نظام جائر مُسْتبدّ .

وللأقليات غير المسلمة في الدول الإسلامية حق التمتع بالحرية الدينية والحماية الكاملة بشرط ولائها للدولة .

= يتعفَّفون عن تلطيخ أيديهم بدماء السكان الأبرياء ولا يلجئون لاغتصاب النساء وقَتل الأطفال والمرضى كما يفعل أعداؤهم كل يوم ، وهكذا أمام المكيافيلية تمتحن المبادئ الإسلامية فَتَثْبُت في مجال التطبيق . « **المترجم** » .

أما الأقليات المسلمة في المجتمعات غير الإسلامية ما دَامت حريتها في ممارسة العقيدة مضمونة وما دامت قادرة على ممارسة حياة طبيعية ، فإن عليها الوفاء بواجباتها إزاء هذه المجتمعات إلا ما يكون منها ضارًّا بالإسلام والمسلمين .

والحق أن وَضْع الأقليات المسلمة في البلاد غير الإسلامية يتوقّف دائمًا على قوة المجتمع الإسلامي وَهَيْبته « في العالم »(٦٤) .

(١٧) العلاقات مع المجتمعات الأخرى :

تقوم العلاقات بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى في العالم على أساس من المبادئ التالية :

١ـ الحرية الدينية :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

٢ـ القوَّة والتَّصميم على الدفاع الحاسم الفعَّال :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن

(٦٤) لا شك أن هذه الهيبة مفقودة ، بل إن المجتمع الإسلامي أو الوحدة الإسلامية لا وُجود لهما على الحقيقة ، وكل ما هو موجود بعض أطر شكلية هشّة يجتمع خلالها قادة الدول المسلمة كلما نزلت بالمسلمين كارثة هنا أو هناك ، ذرًّا للرماد في العيون أو امتصاصها لمشاعر الغضب التي تجتاح الشعوب المسلمة . هذا الأُطر الهشة على الأرجح كل ما يَسْمح به السادة في الغرب من مساحة لحركة الدول المسلمة ، كما أن انعدام فاعلية هذه الأطر يتلاءم بصفة خاصة مع السلطات التي لا تنتمي إلى شعوبها انتماءً حقيقيًّا ، ولا تستجيب بصدق لمشاعر هذه الشعوب ، فلا عجب أن تستمر مأساة الأقليات المسلمة في أنحاء العالم مستعرة على امتداد الكرة الأرضية . « **المترجم** » .

شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٥] .

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٠ - ١٩٢] .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٣٩ - ٤٢] .

٣- حظر الحروب العدوانية وجرائم الحرب :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٢] .

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

٤- التعاون المشترك والتعارف بين الشعوب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

٥ـ احترام العهود والاتفاقات المعقودة :

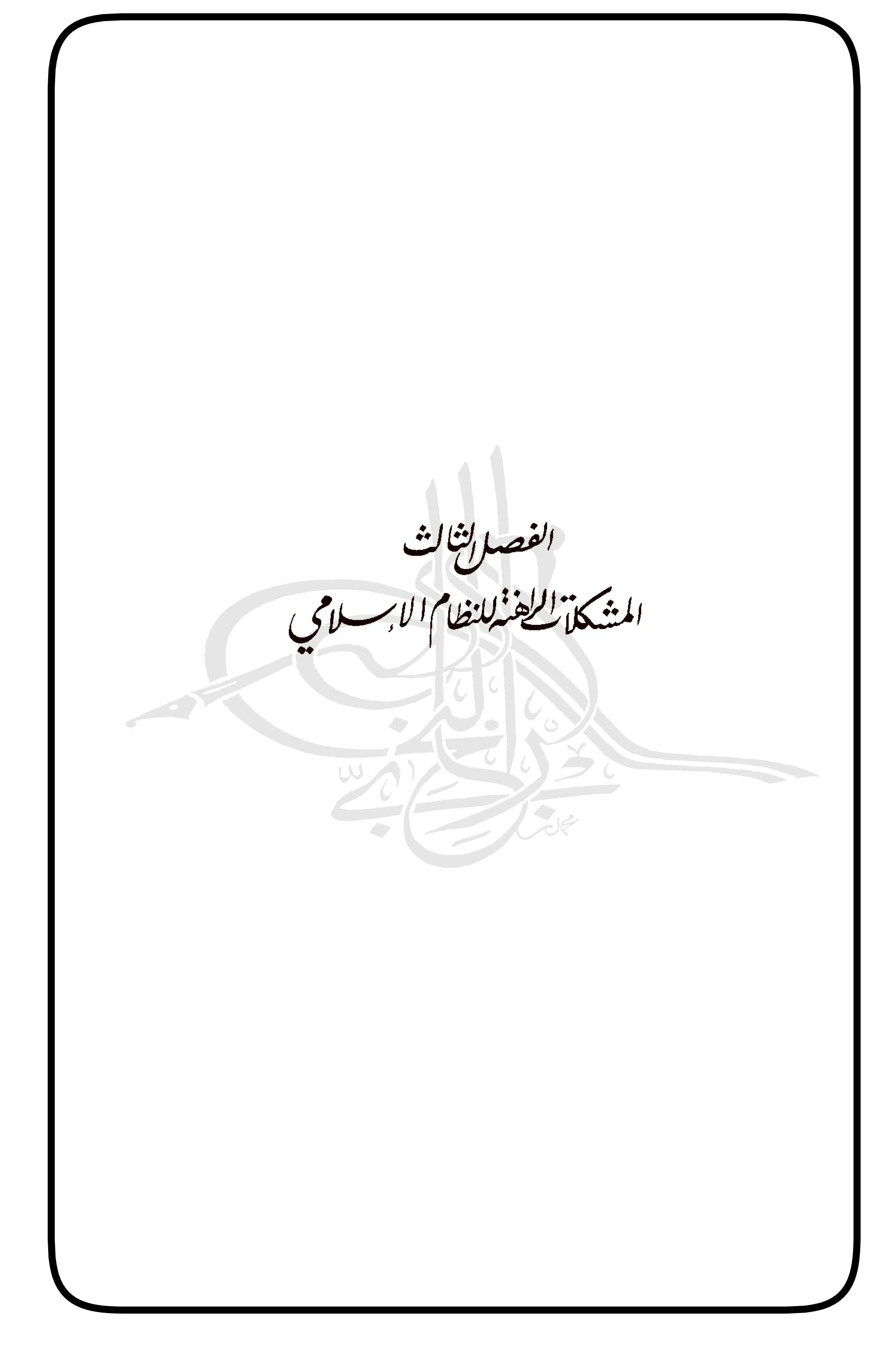
﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤] .

٦ـ المُعَامَلة بالمِثْل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨] .

۞ ۞ ۞ ۞





الفصل الثالث

المشكلات الراهنة للنظام الاسلامي



النهضة الإسلامية ثورة دينية أم سياسية ؟

في النظام الإسلامي تتوحَّد عناصر الدين والتنظيم السياسي والاجتماعي جميعًا ، فكيف نسعى لتحقيقه ؟ بنهضة دينية أم بثورة سياسية ؟

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال هي : إنه لا يمكن البدء في نهضة إسلامية دون ثورة دينية ، كما أنه لا يمكن لهذه النهضة أن تواصل سيرها بنجاح وتكتمل إلا بثورة سياسية .

هذه الإجابة التي تحدد النهضة الإسلامية باعتبارها ثورة مزدوجة ؛ أخلاقية واجتماعية ، وتُعْطي أولوية واضحة للصحوة الدينية . هذه الإجابة تنبثق من طبيعة الإسلام ومبادئه وليس من الواقع الكئيب الذي يطبع العالم المسلم في الوقت الحالي .

هذا الواقع يُفْصِح عن خطورة الحالة المعنوية للعالم المسلم ، كما يكشف عن الانحراف وسيطرة الفساد والخرافة والكَسَل والنفاق وسيادة التقاليد والعادات غير الإسلامية وترسّخ المادية ، والغياب المُذْهل للحماسة والأمل .

فهل يمكن البدء بأيّ نوع من الإصلاح الاجتماعي أو السياسي مباشرة في مثل هذه الظروف ؟

وكل أُمَّة – قبل دعوتها لأداء دورها في التاريخ – عليها أن تَحيا فترة من التطهير « الجواني »[٦٥] والتسليم العملي بمبادئ أخْلاقية أساسية معينة . إنَّ كل قوة في العالم تبدأ بثبات أخلاقي ، وكل هزيمة تبدأ بانهيار أخلاقي .

---

(٦٥) انظر هامش ص (٩٢) في الفصل الثاني من هذا الكتاب . « **المترجم** » .

فكلُّ ما يُرَاد تحقيقه لا بد أن نبدأ بتحقيقه أولًا في أَنْفُس الناس .

فماذا نعني بالصَّحوة الدينية كمُتَطَلّب أساسي للنظام الإسلامي ؟

إنَّ الصحوة الدينية هي وعيٌ وَاضِح بالغاية الحقيقية للحياة : لِمَ نَحيا ؟ ولأَجْل أيّ هدف نحيا ؟ وهل هذا الهدف هدف شَخصي أم هدف مشترك ؟ هل يتعلَّق الهدف بعظمة العنصر « الذي أنتمي إليه » أم مَجْد الأُمّة ، أم تأكيد شخصيتي الفردية ، أم هو هيمنة شريعة الله على الأرض ؟ بالنسبة لحالتنا ، الصحوة الدينية تعني من الناحية العملية « أسلمة » الناس الذين يدّعون أنهم مسلمون ، أو أولئك الناس الذين يدعوهم الآخرون بهذا الاسم . فنقطة الانطلاق في هذه « الأسلمة » هي الإيمان الراسخ بالله من جانب المسلمين ، والالتزام الدقيق الأصيل بقيم الإسلام الدينية والأخلاقية .

أما العنصر الثاني للصحوة الدينية فيتمثّل في الاستعداد للقيام بالواجبات التي يَفْرِضُها الوعي بالهدف(٦٦) .

فالصحوة الدينية - لذلك - هي نوع من الالتزام الأخلاقي والحماسة ، حالة من القوة الروحية على المادة ، حالة من المثالية الحية العملية يصبح فيها الأشخاص العاديون قادرين على أعمال بطولية تتسم بالشجاعة والتضحية . ومن ثم فالصحوة الدينية خاصية جديدة للإيمان والإرادة ، تتلاشي فيها قيمة المعايير اليومية المألوفة للممكن ، ويرتفع فيها الفرد والجماعة معًا إلى درجة

(٦٦) التأكيد هنا واضح في الصحوة الدينية على القيم وتربية النفس والالتزام الخلقي وقوة الروح التي تتسامى على المادة والإغواء والخوف ، وليس مجرد العناية بالأشكال والمظاهر الخارجية والاستغراق أو الانشغال بالمسائل الشكلية الصغيرة دون القضايا الكبرى والمشاكل الجوهرية ، كما نلاحظه اليوم سائدًا بين كثرة من المسلمين . « **المترجم** » .

أعلى من درجات التضحية في سبيل تحقيق مثلهم الأعلى .

وبدون هذه الحالة الجديدة للروح والشعور يستحيل تحقيق أي تغيير حقيقي في عالم المسلمين الحالي .

وعند النظر في هذه الأمور تستبد بنا الحيرة – ولو للحظة قصيرة – فنتساءل : هل أقصر طريق للنظام الإسلامي هو الاستيلاء على السلطة التي ستقوم بدورها ببناء المؤسسات المناسبة وتقوم بتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية ، كمقدمة ضرورية لبناء مجتمع إسلامي ؟ لكن هذه مجرّد غواية ، فالتاريخ لا يذكر لنا أي ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة ، وإنما عن طريق التربية ، وكانت معنية في جوهرها بالدعوة الأخلاقية .

إضافة إلى ذلك فإنَّ الصيغة التي تُقْصِرُ إقامة النظام الإسلامي على نوع من السلطة لا تجيب عن السؤال : من أين تأتي هذه السلطة ومن سيقيمها وينفذها ؟ ومن أي نوع من الناس ستتألف هذه السلطة ومؤسساتها ؟ وفي النهاية من الذي سيكبح سلوك هذه السلطة ويمنعها من أن تتحول إلى « غُول » تخدم نفسها بدلًا من أن تخدم الشعب الذي رحّب بها ؟[٦٧] .

من الممكن استبدال مجموعة من الناس في السلطة بمجموعة أخرى وهذا ما يحدث كل يوم . يمكن استبدال مجموعة من الطغاة بمجموعة أخرى من الطغاة .

---

(٦٧) لعل هذه خلاصة تجارب البلاد المسلمة خلال العقود الأربعة الأخيرة ، فالانقلابات التي سمّت نفسها ثورات تحولت كلها إلى قُوًى مستبدة كان أكبر ما نجحت فيه أنها قضت على القوى الشعبية التي جاءت بها إلى السلطة أو ساندتها لحظات ضعفها الأولى ، ثم تحولت إلى الأمة بأسرها لتدجينها وانتزاع روح الجهاد والمبادرة منها ، وقد نجحت في ذلك أكثر مما فعل الاستعمار الأجنبي بهذه الشعوب . « **المترجم** » .

« إن مُلاك السلطة ، في هذا العالم قابلون للتغيير » ومن الممكن تغيير الأسماء والأعلام والسلام الوطني والشّعارات ، ولكننا بهذا كله لا نستطيع أن نتقدم خطوة واحدة نحو تحقيق النظام الإسلامي من حيث هو تجربة جديدة في العالم ، وعلاقة جديدة مختلفة بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين الآخرين والعالم .

والتطلع الدائم إلى سُلطة ما للمساعدة تكمن جذوره في الميل الطبيعي للإنسان إلى الهروب من المراحل الأولى الشَّاقَّة من الجهاد ، وأعني بذلك جهاد النفس ، فإن تربية الناس مشقة ، ولكن أشق منها تربية الذات .

والصحوة الدينية بحكم تعريفها تعني البدء بالذات ، بحياة الإنسان نفسه ، أما فكرة العنف والسلطة « كوسيلة للتغيير » فهي موجهة للآخرين ، وهذا ما يجعل هذه الفكرة ذات إغواء .

لذلك لا بد لأي حركة تتطلع إلى النظام الإسلامي كهدف أساسي لها أن تكون حركة أخلاقية ، أن تستهدف إيقاظ الناس بالمعنى الأخلاقي ، وأن تكون لها وظيفة أخلاقية تنهض بالناس وتُصلح أحوالهم . وهذا هو الفرق بين الحركة الإسلامية والحزب السياسي .

فالحزب السياسي قد تتمثل فيه وحدة بين الأفكار والمصالح ، ولكنه لا يتضمَّن معايير أخلاقية ولا يُشغِل الناسَ بنشاط أخلاقي .

لقد أعطت المصادر الإسلامية أولوية مطلقة للصحوة الدينية :

أوّلًا : يقرر القرآن أن الصحوة الجوَّانية (تغيير النفس) شرطٌ سابق على أي تغيير ، أو إصلاح أوضاع أي جماعة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

ثانيًا : تأكدت هذه القاعدة عمليًا في صَدْر الإسلام وفي جهاد الرسول (محمد ﷺ) في سبيل إقامة أول نظام إسلامي في التاريخ ، ويدل على هذا أن القرآن ـ طَوال السنوات الثلاث عشرة الأولى من الدعوة الإسلامية ـ اقتصر في نقاشه على قضايا الإيمان وتأكيد المسئولية ، ولم يتطرق في تلك الفترة لأية مشكلة اجتماعية أو سياسية ولم يقرر أي نوع من القوانين الاجتماعية المبنية على الإسلام .

إننا نتطلع إلى الصحوة الدينية في تحقيق ثلاثة أمور أخرى مُهِمَّة :

١ـ الصحوة الدينية وَحْدها هي التي يمكن أن توفّر العزم – دون تردد أو تساهل – على تطبيق أحكام القرآن ، ولا سيما تلك الأحكام التي تتعلق بالأمراض الاجتماعية المتأصلة ، أو التي من شأنها إحراج أصحاب السلطان ومُحْتَكِري الثروات العريضة .

وتعني الصحوة الدينية أن يتم تطبيق هذه الأحكام بدون عنف ولا كراهية ؛ لأن كل المجتمع الذي استيقظ فيه وَعْيه الديني « أو غالبيته » سوف يَفْقَه هذه الأحكام ويرَحّب بها طاعةً لأمر الله وتحقيقًا للعدل .

٢ـ لا يمكن تصوُّر نهضة إسلامية دون استعداد الناس لتضحيات هائلة بالأموال والأَنْفُس ، ولا دون درجة عالية من الثقة المتبادلة والتعاون المخلص فيما بينهم ، وإلا فما الذي يحول دون استغلال هذه الجهود والتضحيات التي يفرضها على نفسه فريق من المجتمع لكي يستخدمها فريق آخر لدعم سيطرته وإشباع مطامعه ؟ وما الذي يمنع من تكرار مأساة الهزائم الأخلاقية[٦٨] التي يتكرر ظهورها في التاريخ الحديث « للمسلمين » .

---

(٦٨) يرى « علي عزت » أن الهزائم العسكرية والكَوَارث الاجتماعية والسياسية التي تحلُّ بالمجتمعات =

إن كل نظام ـ بما في ذلك النظام الإسلامي ـ يكون دائمًا أكثر تمثيلًا للناس الذين أقاموه من تَمْثيله للمبادئ التي يُنَادون بها .

٣ـ نظرًا للتَّخَلُّف المُذْهِل في العالم الإسلامي .. عليه أن يسير سيرًا حثيثًا في مَجَالي التربية والتصنيع « جنبًا إلى جنب » ؛ ذلك لأن التنمية المادية المتسرعة تكون عادة مصحوبة بأعرَاض مرضية خطيرة ، تتمثل في الاستبداد والفساد وتحطيم الأسرة وانتهاب الثروات بطرق سريعة غير مشروعة ، وبروز الانتهازيين ومعدومي الضمير في المقدمة ، والتوسع في المدن « على حساب الريف » ، وانتشار الكحول والمخدرات وتَفَشِّي الدعارة . ولا يوجد سدّ يَحُولُ دون الفيضان الكاسح لهذا الخبث المضاد للثقافة والأخلاق إلا ذلك السَّد الذي يُبْنَى على أساس من الإيمان القوي الخالص بالله ، والالتزام بتعاليم الدين من قِبل جميع فئات الشعب ، فالدين وحده هو الذي يضمن لنا ألا تُقَوِّض الحضارة أركان الثقافة[٦٩] . أما التقدم المادي والتقني المجرّد كما رأينا بوضوح في كثير من الحالات فإنه قد يتحول إلى بربرية .

= المسلمة هزائم أخلاقية بالدرجة الأولى . فالهزائم تبدأ في النفوس أولًا ثم تتحقق في الواقع . ولعل الأعمال الأدبية تعكس هذه الحقيقة بصدق أكثر من تقارير بعض العسكريين والمحللين السياسيين ، فبعض أعمال نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس مثلًا تعكس الهزائم الأخلاقية للمجتمع التي سبقت هزيمة العرب سنة ١٩٦٧ أمام العدو الإسرائيلي ، ولإحسان عبد القدوس كتاب بعنوان « الهزيمة اسمها فاطمة » يكشف عن الفساد السياسي والانحلال الخلقي الذي سبق الهزيمة والعنوان يحمل دلالته ! « **المترجم** » .

(٦٩) للتمييز بين الحضارة والثقافة عَقَد « علي عزت » في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » فصلًا كاملًا لمن أراد أن يتوسع في فهم هذا الموضوع ، و « علي عزت » لا يلتزم في فلسفته بالتعاريف الكثيرة المختلفة التي سبقته ، وإنما يقدم مفهومًا جديدًا يفصل فيه فصلًا تامًّا بين ما ينتمي إلى عالم الثقافة وما ينتمي إلى عالم الحضارة . « **المترجم** » .

السلطة الإسلامية

إننا إذا كنا نؤكد على أولوية الصحوة الدينية والأخلاقية فهذا لا يعني – ولا يصح تأويله ليعني – أن النظام الإسلامي يمكن أن يقوم دون سلطة إسلامية . إنه يعني فحسب أن طريقنا لا يبدأ بالاستيلاء على السلطة ، وإنما بكسب الناس ، وأن الصحوة الإسلامية إنما هي ثورة في التربية تؤدّي إلى ثورة في السياسة . فيجب علينا أن نكون أولًا دعاة ثم بعد ذلك نكون جنودًا مجاهدين ، وسلاحنا هو القدوة الشخصية والكتاب والكلمة ، فمتى تلحق القوة بهذا كله ؟

اختيار هذه اللحظة هو دائمًا اختيار واقعي يعتمد على سلسلة من العوامل . وتوجد على كل حال قاعدة عامة : أن الحركة الإسلامية يمكنها – بل يجب عليها – أن تبدأ في السعي إلى السلطة عندما تجد في نفسها مِن القوة الأخلاقية والعددية ما يمكّنها– ليس فقط – من تغيير الحكومة غير الإسلامية – بل أيضًا – من بناء حكومة إسلامية . وهذا التمييز بالغ الأهمية ؛ لأن تغيير النظام وبناء نظام آخر لا يتطلبان نفس الدرجة من التهيؤ النفسي والمادي .

التَّسَرُّع في هذه الأُمُور خطر ، شأنه في ذلك شأن التراخي ، وتسلُّم السلطة نتيجة توافر مجموعة من الظروف المواتية دون إعداد أخلاقي ونفسي كاف ، ودون توافر الحد الأدنى الضروري من الأفراد المدربين تدريبًا عاليًا متينًا يعني إحداث انقلاب آخر وليس ثورة إسلامية ، « والانقلاب إنما هو استمرارية للسياسة غير الإسلامية مما تقوم به المجموعات الأخرى أو باسم مبادئ أخرى غير المبادئ الإسلامية » .

وبالمثل فإن التراخي في تسلُّم السلطة معناه حرمان الحركة الإسلامية من

وسائل فعّالة لتحقيق أهدافها ، وإتاحة الفرصة في الوقت نفسِه للسلطات غير الإسلامية لتسديد الضربات للحركة وتمزيق شملها . والتاريخ الحديث يقدم لنا – في هذا المجال – نماذج مأساوية ذات دلالة لا تنكر .

باكستان - جمهورية اسلامية

عند الحديث عن الحكم الإسلامي لا نستطيع تجنب الإشارة إلى النموذج الباكستاني وهو النموذج الوحيد اليوم الذي أعلن بأنه جمهورية إسلامية(٧٠) .

إننا نعتز بباكستان بصرف النظر عن الإخفاقات التي تعرضت لها والمشكلات التي استغرقتها ؛ لأن باكستان كانت نتيجة لرغبة في إقامة نظام إسلامي ، ولأن الذين فكّروا فيها وقاموا بإنشائها كانت دوافعهم إسلامية .

لقد كانت باكستان « بروفة » لتقديم نظام إسلامي تحت ظروف عَصْرية وبمعدلات التطور الراهنة . وعلى أنصار الحركات الإسلامية أن يتعلّموا ما ينبغي وما لا ينبغي عمله . ويمكن تلخيص التجربة السّلبية لباكستان « والتجارب السلبية لها دائمًا أهميتها » في النقاط الآتية :

١ـ الافتقار إلى الوحدة في بنية القوى التي وضعت فكرة « إقبال » عن الباكستان موضع التنفيذ ، فقد كان من الواضح بعد مولد باكستان أن الجامعة الإسلامية Muslem League قد تألَّفت كيفما اتفق من عناصر مختلفة دون أفكار توحِّد بينها فيما يتعلق بقضايا مثل كيفية تنظيم الدولة وتنظيم المجتمع ، وفي هذا المجال لم تكن « الجامعة » أكثر من تحالف بين أحزاب سياسية . وفي مواجهة

(٧٠) كان هذا قبل ظهور الجمهورية الإسلامية في إيران . « **المترجم** » .

الأزمات الكبرى لباكستان لم يستطع هذا التحالف أن يُحَافظ على وحدته .

٢ـ المنحى الشَّكلي الجامد في تطبيق المعايير الإسلامية على الواقع الباكستاني ، فبدلًا من أن يُرَكز العلماء والفقهاء على القضايا الحيوية الحاسمة للتربية والتعليم ، استهلكوا طاقاتهم إلى درجة الانقسام في قضايا جانبية مثل : إلى أيّ مَدًى من الشدة ينبغي تطبيق الحدود الشرعية وقانون الزواج . وبينما كانت المناقشات تُجرى حول ما إذا كان من الضروري قطع يد السَّارق أو الاكتفاء بإرساله إلى السجن ، ظهرت أنواع خطيرة من السَّرقة والفساد وتفشت في المجتمع ، مما أدى إلى كوارث هزت أركان الدولة الباكستانية .

إنَّ العبر المُسْتَخْلَصة من عشرين سنة من الوجود الباكستاني أصبحت واضحة جلية :

أولها : أن النضال من أجل بناء نظام إسلامي وإعادة بناء مجتمع مسلم بكل ما في الكلمة من معنًى ، يمكن أن يتحقق فقط بقيادة أفراد حُكَماء مخلصين على رأس منظمة متجانسة ذات عزم وتصميم . ولا تحتاج هذه المنظمة أن تكون على غرار الأحزاب السياسية التي تعجُّ بها ساحةُ الديمقراطية الغربية ، وإنما هي حركة مؤسسة على إيديولوجية إسلامية يتمثل في أعضائها قيم أخلاقية وفكرية واضحة .

أما ثانيها : أن النضال من أجل بناء نظام إسلامي اليوم لا بد أن يَنْصَبَّ على أساسيات الإسلام ، وهذا يعني التأكيد على التربية الدينية والأخلاقية للشعب جنبًا إلى جنب مع أساسيات العدالة الاجتماعية . أما الالتفات إلى الشكل الخارجي للأمور فذو أهمية ثانوية في الوقت الراهن .

وثالثها : ليست مهمّة الجمهورية الإسلامية - بالدرجة الأولى - إعلان المساواة بين الناس والأخوّة بين المسلمين ، وإنما الجهاد لتطبيق هذه المبادئ السامية في الحياة العملية . إنَّ صحوة الإسلام أينما وجدت ينبغي أن تحمل راية نظام اجتماعي أكثر عدالة وأن توضح بما لا يدع مجالًا للشك أن الجهاد يبدأ بالحرب على الجهل والظلم والفقر ، حرب لا هوادة فيها ولا انسحاب منها ، فإذا أخفقتْ في هذه المهمة فسوف يلتقط الراية الغوغائيون وأدعياء إنقاذ المجتمع لتحقيق أهدافهم المنافقة .

لهذه العبر مَذَاق مُرّ ومع ذلك فإننا ما زلنا نعتقد في باكستان ورسالتها في خدمة الإسلام العالمي ، فلا يُوجد قلب مُسْلم لا يخفق عند ذكر شيء عزيز علينا مثل باكستان ، حتى ولو كان هذا الحب - مثل غيره - لا يخلو من الخوف والقلق . إنَّ باكستان أمل كبير مُفْعم بالمحاولات والإغراءات .

الجامعة الإسلامية والقومية :

في بعض الحجج التي سُقْنَاها تأييدًا للنظام الإسلامي اليوم ذكرنا أن الاتجاه إلى توحيد كل المسلمين وكل المجتمعات الإسلامية في العالم هو وظيفة طبيعية للنظام الإسلامي . وبالنسبة للأوضاع الراهنة يحتاج الأمر إلى جهاد لإقامة وحدة إسلامية كبرى من المغرب إلى إندونيسيا ومن المناطق الحارة في أفريقيا إلى وسط آسيا .

ونحن نعلم تمام العلم أن الإفصاح عن هذه الرؤية يُعَكّر صَفو نوع من الناس في أوساطنا ، يدّعُون أو يعتبرون أنفسهم « واقعيين » . ومع ذلك فنحن نؤكد هذا الهدف بصوت عالٍ وبوضوح تام ، حيث نفضل أن نتجاهل هذه « الواقعية »

المزعومة التي تحكم على الشعوّب المسلمة بأن تبقي في وضع مهين إلى الأبد غير تاركين لها مجالا للمحاولة أو الأمل . والحق أن هذه « الواقعية » مصدرها الجبن والخضوع لسطوة الأقوياء في هذا العالم .

منطق هذه الواقعية يقول : ينبغي للسادة أن يظلّوا أسيادًا وأن يبقى العبيد عبيدًا . غير أن التاريخ – كما سبق أن أشرنا – ليس فقط قصة التغيير المستمر ، وإنما هو أيضًا قصة التحقيق المستمر للمستحيل وغير المتوقع . فكلُّ شيء تقريبًا مما نراه اليوم يصنع عالمنا المعاصر كان يبدو مستحيلًا قبل خمسين سنة .

ومن البيّن الواضح أنه يوجد نَوْعَان من الواقعية ؛ واقعيتنا نحن وواقعية الضفعاء الجبناء . فنحن نعتقد أنه لا يوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأُمور وإلى الواقعية من مطلب اتحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أَقْدَر على معالجة مشكلاتهم المشتركة ، وأن يتَّجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية – تتجاوز القوميات – لكي يحققوا التنسيق والعمل المشترك في هذه المجالات الهامة . هذه الفكرة تبدو لأصحاب « الواقعية » (أو قل الضعفاء منا) فكرة غير عملية ؛ ذلك لأنهم يقدسون الأمر الواقع ، وهو في نظر فهمنا للواقعية نموذج صارخ لما هو غير طبيعي ، بل ما هو عبثيّ منافٍ للعقل .

فمثلًا : نحن نجدُ من غير المقبول نهائيًّا وغير واقعي في هذا العصر وهو عصر التَّجَمُّعات والتكتلات أن نجد شعبًا واحدًا هو الشعب العربي مجزّءًا إلى ثلاثة عشرة دولة منفصلة ، وأن نرى الدول المسلمة تتخذ مواقف متعارضة في العديد من القضايا الدولية المهمَّة ، وأن نرى المسلمين في مصر لا يعبئون بمعاناة إخوانهم المسلمين في أثيوبيا وكشمير ، وأنه في قمّة الصِّدام بين العرب

وإسرائيل يحتفظ المسلمون في إيران بعلاقات صداقة مع المعتدي[٧١] .. وهكذا وهكذا .

فإذا كان هناك – حقيقة – ما هو غير واقعي فليس هو وحدة المسلمين ، وإنما غياب هذه الوَحْدة ، بل الأدهى من ذلك استمرار حالة الانقسام والتنافر التي نراها اليوم بين المسلمين[٧٢] .

لا يوجد هدف تاريخي لا يَقْدِر الناس على تحقيقه بالإرادة والجهد المشترك إلا إذا كان هدفًا مُضادًّا للطبيعة أو الحقائق التاريخية .

و « الطوبيا » التي يؤمن بها بعض الناس والتي يناضلون من أجل تحقيقها تتوقف عن أن تكون طوبيا[٧٣] « عندما تتحقق في الواقع » ، أما الضعفاء من أدعياء « الواقعية » عندنا فإنهم غير مؤهلين للإيمان أو للعمل ، وهذا هو سرُّ واقعيتهم المهينة . إنهم عندما يقولون : إن وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه فإنهم يعبّرون عن عجز يستشعرونه في أنفسهم ، فالاستحالة ليست في العالم الخارجي بل في صميم قلوبهم .

إنَّ فكرة وَحْدة جميع المسلمين ليست من اختراع الإنسان ولا هي رغبة جامحة لمصلح إيديولوجي ، بل من صميم القرآن : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠][٧٤] ، وهي بديهية حافظ عليها الإسلام

---

(٧١) حَدَثَ هذا في عهد الشاه قبل قيام الجمهورية الإسلامية في إيران . « **المترجم** » .

(٧٢) تفاقمت الأوضاع وزادت حدة الخلافات بعد حرب الخليج الثانية . « **المترجم** » .

(٧٣) انظر هامش ص (٦١) في مقدمة المؤلف . « **المترجم** »

(٧٤) وانظر أيضا آية ٩٢ من سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ .

وحَرَصَ على أن تظل مجددة في قلوب المسلمين وعقولهم من خلال فريضة الصوم التي يشارك فيها جميع المسلمين ، ومن خلال فريضة الحج حيث يتجمع المسلمون من أنحاء الأرض في البيت الحرام حيث الكعبة المشرفة أقدس بيوت الله وأعظمها على وجه الأرض . وهكذا يبث الإسلام شعورًا واحدًا متَّصلًا بالانتماء والوحدة في أرجاء العالم المسلم . وأيُّ شخصٍ أُتيحت له فرصة لقاء الناس البسطاء في شوارع البلاد المسلمة عقب أي كارثة تحل ببلد مسلم ، سوف يتأكد بنفسه من قوة الشعور بالتعاطف والتضامن الذي يُكِنُّه المسلمون لإخوانهم في هذا البلد المَنْكُوب .

فكيف إذن تبقى هذه « الوَحْدة الإسلامية الشعبية » مجرَّد مشاعر فيَّاضة لدى الجماهير ، ولكن بلا تأثير مَلْمُوس في الحياة اليومية والسياسية العملية للبلاد المسلمة ؟

لماذا تبقى مقتصرة على المشاعر ولا تَرْقَى إلى مستوى الوعي الحقيقي بالمصير المشترك ؟ كيف يمكن تفسير حقيقة أنه برغم أخبار معاناة المسلمين في فلسطين وسنكيانج وكشمير وأثيوبيا[٧٥] تُثِير مَشَاعر الاكتئاب والاستنكار الجماعي في كل مكان ومع ذلك نجد أن العمل إما مفقودًا تمامًا ، وإذا وُجِد فليس على مستوى قوة المشاعر ؟

وجواب ذلك يكْمُن في حقيقة تَتَنَاقض مع مشَاعر الجماهير المسلمة ، إنه أمر مقصود وليس من قبيل الصدفة ، والمسئول عن ذلك هم القادة والزعماء

---

(٧٥) هذه قائمة قديمة ، ولا تزال قائمة الضحايا من الأقليات المسلمة في زيادة مستمرة وقد أضيف إليها مؤخرًا وطن المؤلف نفسه « البوسنة والهرسك » . « المترجم » .

الذين تعلموا في الغرب أو في معاهد تعليمية خاضعة للغرب ، فهؤلاء قلوبهم مع النزعات القومية وليست مع الوَحْدة الإسلامية ، ومن هنا حدث الانفصام بين مشاعر الشعوب ووعي القادة . ومع استمرار هذا الوضع أصبح كل عمل فعّال مستحيلًا وسيظل كذلك (ما لم تتغير هذه التركيبة) .

ومُهِمّة الوَحْدة الإسلامية المعاصرة – بصفة مبدئية – هي محاولة التوفيق بين المَشَاعر والوعي ، بحيث نتقبل هويتنا الحقيقية وننبذ ما ليس منها . وسيكون من شأن هذا الوضع أن يحدّد طبيعة القومية ومصيرها في العالم المسلم .

لقد نشأت القوميات في العالم كحركات شعبية للتأكيد على خصائص الشعوب الثقافية كما تتمثل في « الموسيقا والفنون الشعبية وبالأخص اللغة » ، ولكننا رأينا في بلاد المسلمين طرازًا ممسوخًا من القوميات فهي قوميات « لا قومية » أو قوميات في مظهرها ، وتفكيك للقومية في الواقع العملي . وتعليل ذلك يكمن في حقيقتين : الحقيقة الأولى هي أن الشعور العام للجماهير المسلمة قد تَشَرّب الوحدة الإسلامية « في نسيجه الوجداني » .

والحقيقة الثانية أن فكرة القومية نُظر إليها باعتبارها بديلًا عن الإسلام ، ولذلك تم تحييدها كحركة مضادة للإسلام(٧٦) .

وقد وَجَد دُعاة القومية في كثير من بلاد المسلمين أنفسهم في تصادم تلقائي مع ماضي الشعوب المسلمة وتقاليدها ، وهو ماضٍ إسلامي وتقاليد إسلامية .

---

(٧٦) ثمة خَلْط بين النزعة القومية كإيديولوجية « بمدلولها الغربي » كما تتبناها بعض الأحزاب العربية الشهيرة وبين الوَحْدة العربية كما تتطلع إليها الجماهير . ونتيجة لهذا الالتباس أقام بعض المثقفين تعارضًا بين الوَحْدة العربية والنزعة الإسلامية في حين أنه لا يوجد تَعَارض حقيقي بينهما .

كذلك غالى أصحاب النزعة الوطنية الضيقة فرفضوا العروبة والوحدة العربية في حين أنه لا تعارض =

ومن ثم شرع دعاة القومية في القيام بنوع من تفكيك القومية استمرارا للدور الذي كان يقوم به المستعمر سابقًا .

وليس أدل على ذلك من وضع اللغة العربية في بعض البلاد العربية ، وهو وضع ليس أفضل كثيرًا من وضعها أثناء الاحتلال الإنجليزي - الفرنسي ؛ وذلك لأن موقف الإدارة الوطنية - في هذه الناحية - لم يكن أفضل كثيرا من موقف المستعمر الأجنبي . وحتى عندما يتم شيء في سبيل تحسين هذا الوضع فإنه يتم بدون حَمَاس صادق(٧٧) .

والسبب في هذا الموقف سبب بسيط ؛ هو أن اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الحضارة الإسلامية . إذن ، فاللغة العربية أداة إسلامية أكثر منها أداة عربية ، أو أداة للوحدة العربية . ولقد أَدرك زعماء القومية أو الوطنية الضيقة هذه الحقيقة إدراكا تاما ووجدوا لذلك حلًّا لا سابقة له في تاريخ العرب : أن يستخدموا هم وأجهزتهم لغة المستعمر السابق ! ولكن في العالم المسلم - لا يمكن أن تقوم وطنية حقيقية دون إسلام .

وخُلاصة الأمر :

أن كل الشواهد السابقة تؤكّد - بما لا يدع مجالًا للشك - أن الأفكار

= بين العروبة والوطنية ، فالعروبة أوسع وأشمل وهي تثري الوطنية وتقويها . وقد دافع « رجاء النقاش » عن عروبة مصر وفنّد مزاعم أصحاب النزعة المصرية الضيقة في كتاب خصصه لهذا الغرض . أما الدكتور يوسف القرضاوي فلا يرى أي تعارض بين النزعات الثلاث : الوطنية والعربية والإسلامية ، بل يَرَاها حلقات مُتَداخلة لا تنفي إحداها الأخرى بل تدعمها وترسخها . انظر كتاب « الإسلام والعلمانية » ، ص ١٩٩ . « المترجم » .

(٧٧) بالمقارنة : لقد أعاد اليهود إحياء لغتهم القديمة التي كادت أن تندثر وتتلاشى في زوايا النسيان .

القومية في عالم المسلمين جاءت من مصادر غير إسلامية ، ويبدو هذا أكثر وضوحًا في حالة الشرق الأوسط ؛ حيث كان روّاد القومية من المفكرين السوريين والمسيحيين اللبنانيين الذي تَلَقّوا تعليمهم في الجامعة الأمريكية (الكلية السورية البروتستانتيّة سابقًا) وفي « جامعة سانت جوزيف » ببيروت .

واستقراء الجذور الروحية والتاريخية لحركة « أتاتورك » في تركيا وحركة « سوكارنو » (بانتشاسيلا)[٧٨] و « حزب البعث » في البلاد العربية (على الأخص بعض فروعه) ، إلى جانب عدد كبيرٍ من الحركات القومية و« الثورية » في أنحاء العالم المسلم – استقراء هذه الحركات جميعًا يؤكد استنتاجاتنا عنها ، أن الوحدة الإسلامية تنبع دائمًا من أعماق قلوب الشعوب المسلمة ، أما القومية فقد كانت دائمًا بضاعة مستوردة .

لذلك فإن الشعوب المسلمة لا تملك « الموهبة » للتعلق بالقومية ، فهل نذرف الدموع على هذه الحالة ؟ !

إننا حتى لو تجاهلنا – ولو للحظة – الحقيقة الساطعة أن مبدأ الجماعة الروحية (الأمة بمعناها القرآني) أسْمَى من مبدأ القومية ، لبقي علينا أن ننصح شعوبنا ألا تحاول اكتساب هذه « الموهبة » .

والشعوب التي عاشت قُرونًا في مجتمعات قومية أصبح عليها اليوم أن تتكيف لأشكال جديدة من الحياة المشتركة تمكّنها من التكتل على قاعدة من الوحدة أوسع من القومية . ونرى اليوم في ألمانيا وفرنسا رجالًا حُكَماء بعيدي النظر ينصحون شعوبهم بأن يكون شعورهم بفرنسيتهم وألمانيتهم أقلّ من

---

(٧٨) بانتشاسيلا : مبادئ سوكارنو الخمسة المعروفة .

شعورهم بأنهم أوربيون .

لقد كان إنشاء السوق الأوربية المشتركة - وإن كانت فكرتها غير مقبولة لأوّل وهلة - أعظم لحظة إيجابية في تاريخ أوربا القرن العشرين . فهذه المنظمة التي تَسْمُو على القوميات تعتبر أول انتصار حقيقي للشعوب الأوربية على القوميات التي أصبحت تَرَفًا باهظ التكاليف بالنسبة للشعوب الصغيرة ، بل حتى المتوسطة والكبيرة .

يشهد العالم الحديث اليوم تَطَوّرًا لم يسبق له مثيل في التاريخ ، فقد أصبحت البرامج والمشروعات في مجالات التعليم والبحث العلمي والاقتصاد والدفاع تتكلف أرقامًا فلكية ، فهي تتطلب حشدًا من القوى البشرية وتجميع الموارد مما لا قبل للأمم الكبرى بها ناهيك عن الأمم المتوسطة أو الصغرى ، إنها لا تتوافر إلا لتجمعات من الأمم . وهناك اليوم اتحادان يسيطران على العالم وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي [٧٩] ، وفي الطريق الآن اتحاد ثالث هو الاتحاد الأوربي .

إنَّ دولة لا تستطيع حشد مائتي مليون نسمة من السكان وأن تحقق مائتي مليار من الدولارات في دخلها القومي - لا يمكن أن تُواصل التقدم خطوة واحدة ، وعليها أن تقنع بمركز متواضع في هذا العالم . إنها لا تستطيع أن

---

(٧٩) ذهب الاتحاد السوفيتي إلى متحف التاريخ ، ويبرز الآن على الساحة كقوى اقتصادية وسياسية كبرى : الصين واليابان وما يطلقون عليه نمور جنوب شرق آسيا . بل إنّ الولايات المتحدة - لكي تضمن استمرار تفوقها في مجال هذا الصراع العالمي سعت إلى إنشاء وحدة اقتصادية يطلق عليها « نفتا » NAFTA وهي تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ، فمتى نسمع عن وحدة عربية أو إسلامية ؟ ! « المترجم » .

تحكم نفسها ناهيك بحكم غيرها . ولم تعد معدلات النمو عاملًا حاسمًا في تقييم الأمم فقد حلّت مكانها تلك الأرقام التي أشرنا إليها . فلا شك أن التنمية الصينية أقل بكثير من التنمية في فرنسا وانجلترا ، ولكنها بفضل الحشد الهائل من البشر والموارد تُبدي في مجال المنافسة الراهنة تفوقًا ملحوظًا . هذا الوضع يعني أن هنالك فرصة أمام العالم المسلم – وهو عالم متخلف – ولكنه فسيح الأرجاء يفيض بالثروة الطبيعية .

وهناك أمر آخر يتطلب جهودًا عاجلة مكثفة في البلاد المسلمة . فالتخلف الاقتصادي والفكري في هذه البلاد يزداد يومًا بعد يوم نتيجة للزيادة المطردة في تعداد السكان .

فمثلا : في مصر وباكستان أكبر معدلات الزيادة السكانية في العالم اليوم . وطبقًا لبعض التقديرات يستقبل العالم المسلم كل عام عشرين مليون مولود جديد ، فإذا استمر النمو السكاني بالمعدلات الراهنة فإنَّ العَالم المسلم سيضاعف عدده داخل حدوده الحالية في نهاية هذا القرن . فهل نستطيع حينئذ أن نستقبل ونطعم ونوفر أماكن في المدارس ، ونوفر أعمالًا ووظائف لهذه الملايين التي نتوقع ولادتها ؟

هذا النمو الدرامي للسكان إذا لم يصحبه – على نفس المستوى من السرعة – تقدُّم اقتصادي واجتماعي فإنه ينطوي على مخاطر كثيرة لا يعلم مَدَاها إلا الله .

لقد ابتلع هذا التضخم السكاني كل زيادة في الإنتاج ، بحيث أصبح الدخل القومي في أكثر البلاد المسلمة اليوم أدنى مما كان عليه منذ عقدين سابقين . وبدلًا من أن تكون هذه الزيادة السكانية عنصر قوّة في عالم إسلامي متّحد ، أصْبحت مَصْدر بلاءِ وأزمات ومَدعاة لليأس في عالم مقطّع الأوصال .

ومن الواضح أن البلاد المسلمة كل واحدة بمفردها لا تستطيع أن تتغلب على هذه المشكلة . ولكننا نستطيع أن نُواجه هذا الوضع - وفي الوقت نفسِه - نعوّض سنوات التخلف والجمود من خلال نوع جديد من الوحدة . فما لا يقدر على حله العرب أو الأتراك أو الإيرانيون أو الباكستانيون وَحْدَهُم ، يستطيع المسلمون جميعًا حله بجهد مشترك موحد .

كل دولة مسلمة لا يمكنها أن تَبْني رَخَاءها وحرّيتها إلا إذا كانت بفعلها هذا تبني أيضًا رخاء وحرية جميع المسلمين .

فالكويت وليبيا - وهما دولتان غنيتان - لا يمكنهما أن يبقيا جزيرتين من الرخاء في بحر من البؤس والشقاء . فإذا لم تبرهن الدولتان على رغبتهما في التضامن الإسلامي وعلى إرادتهما مساعدةَ جيرانهما من البلاد المسلمة الأخرى ، وإذا سيطرت عليهما بدلًا من ذلك الأَثرة والأنانية ، ألا يكون هذا دعوة لأن تحذو حذوها الدول المسلمة الأخرى ؟ مما يؤدي إلى الكراهية والاضطراب الذي يطمع فيه الأعداء .

إن الدول المسلمة الغنية عندما تقوم بواجبها الإسلامي فإنها بذلك إنما تَتَصَرَّف بما يُحَقِّق مصالحها الخاصة على أَحْسن وجه .

البديل الذي لا مفر منه أمام كل دولة مسلمة واضح ، فإما أن تَتَّحد مع غيرها من الدول المسلمة الأخرى ، فتضمن بهذا الاتحاد بَقَاءَها وتقدّمها وقوّتها في مواجهة مطامع الأعداء ، وإما أن يزداد تَخَلّفها يومًا بعد يوم ثم ينتهي بها المصير إلى السقوط في هوة التبعية تحت رحمة الدول الأجنبية الغنية .

واللحظة التاريخية الرَّاهنة تعطي لهذه الوحدة بُعْدًا جديدًا ؛ فالوحدة لم تَعُد

مُجَرّد أُمنية طيِّبة تُدَاعب خيال المثاليين والحالمين ، وإنما أصبحت الوحدة ضرورة لا مناص منها ، بل أصبحت قانونًا للبقاء وشرطًا لاحترام الذات في عالمنا المعاصر . وأما الذين يُكَرِّسون التَّشرذم الراهن بين الدول المسلمة لأي سبب أو دافع فإنهم يقفون بمقاصدهم وأهدافهم في صفوف الأعداء(٨٠) .

المسيحية واليهودية

نظرًا لضيق المجال في هذه الرسالة لا يمكننا أن نَعْرض لموقف الإسلام من جميع العقائد والنُّظم غير الإسلامية ، إلا أنه من الضروري أن نُوضّح موقفه من الديانتين الأساسيتين : المسيحية واليهودية(٨١) ، ومن النظامين المُسَيْطرين على العالم وهما الرأسمالية والاشتراكية(٨٢) .

نحن بالنسبة للمسيحية - نفرّق بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة . أما تعاليم المسيح فهي وَحْيٌ من الله لَحِقَ به تحريفٌ في بعض المواضع ، وأما الكنيسة - وقد استقرت كمؤسسة قائمة على نظام كهنوتي هَرَمي ذي مَرَاتب ودرجات - فقد أصبحت بتنظيمها وسياستها وثرواتها ومصالحها لا ضّد

---

(٨٠) كان « مالك بن نبي » المفكر الإسلامي « الجزائري الموطن » يعتقد أن بلاد العالم الإسلامي في مجموعها تمتلك من الثروات الطبيعية والقوى البشرية ما تستطيع به - مع توافر شروط إنسانية معينة - أن تصنع أعظم حضارة في العصر الحديث ، وأن حالة الشلل التي تصيب العالم الإسلامي ترجع إلى شرذمة هذه المصادر وحبسها بين جدران قلاع وطنية وقبلية مصطنعة وحرمان القوى البشرية وطاقاتها الهائلة من استثمار هذه المصادر ، وهي حالة يطلق عليها « مالك بن نبي » « اللافعالية » ، انظر كتاب مالك « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ١٩٥٦ .

(٨١) انظر كتاب « علي عزت » « الإسلام بين الشرق والغرب » ص ٢٧١ - ٢٨٩ « **المترجم** » .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٣٤ - ٣٦٧ . « **المترجم** » .

الإسلام فحسب بل ضد المسيح نفسه . وإن أَيّ شخص يُرَاد منه أن يُحَدّد موقفه تجاه المسيحية فمن حقه أن يسأل : هل المقصود بالسؤال تعاليم المسيح أم محاكم التفتيش ؟

ذلك لأن الكنيسة خلال تاريخها كانت تتأرجح دائمًا بين هذين القطبين ، فكلما أصبحت أقربَ إلى التعبير عن تعاليم الإنجيل الأخلاقية ، كانت بعيدةً عن محاكم التفتيش ، ومِنْ ثَمَّ أقربَ إلى الإسلام . ونحن نُقَدِّر الاتجاهات الجديدة التي أعلنها مؤخرًا مؤتمر الفاتيكان حيث نرى فيها اقترابًا من المعتقدات المسيحية الأصيلة .

ومن الممكن - إذا أراد المسيحيون - أن يشهد المستقبل فرصة للتفاهم والتعاون بين الديانتين العظيمتين لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية بصفة عامة ، خلافًا لما كان يحدث في الماضي من مَعَارِك بدافع من التعصب والصراع الأحمق .

وموقف الإسلام تجاه اليهودية يقوم على الأساس نَفْسِه . فقد عِشْنا مع اليهود قُرونًا ، بل أقمنا معهم بناء ثقافيًا مشتركًا يصعب - في بعض الحالات - التمييز على وجه التحديد بين ما هو إسلامي وما هو يهودي في هذا البناء[٨٣] .

ولكن تحت قيادة الصهيونية بادر اليهود بعمل لا إنساني ظالم في فلسطين بقدر ما كان قصير النظر متهورًا . لقد أخذت هذه السياسة في حسابها فقط حالة العلاقات اللحظية المؤقتة ، وتجاهلت العوامل الثابتة والتوازن العام للقُوى بين اليهود والمسلمين في العالم .

---

(٨٣) يُشير المؤلف هنا إلى الحضارة الإسلامية في الأندلس . « **المترجم** » .

لقد أَلْقَت الصهيونية قفاز التحدي في وجه العالم المسلم كله . فالقدس ليست قضية الفلسطينيين وَحْدَهم ولا حتى قضية العرب وحدهم . إنها قضية جميع الشعوب المسلمة . ولكي يحتفظ اليهود بالقدس عليهم أن يَقْهَروا الإسلام والمسلمين جميعًا ، وهذا ـ بفضل الله ـ أمر يتجاوز حُدود قدرتهم .

يُهِمُّنا أن نُميِّز شيئين : اليهود والصَّهاينة ، ذلك إذا كان في استطاعة اليهود أنفسهم أن تكون لديهم الشجاعة لتأكيد هذا الاختلاف ، إننا نأمل أن الانتصارات التي أَحْرَزَها اليهود ضد الأنظمة العربية المنقسمة (وليس ضد العرب ولا ضد المسلمين) – لن تحجب عنهم الرؤية الصحيحة والفَهْم الصَّحيح ، وأن يَشْرَعوا في إزالة المواجهة التي خلقوها بأنفسهم ، حتى يَتَمَهَّد الطريق للمعايشة على الأرض الفلسطينية ، أما إذا أصرّ اليهود على السَّير في طريق الغطرسة – وهو ما يبدو حتى هذه اللحظة الأكثر احتمالاً – فلا خيار أمام الحركة الإسلامية وأمام المسلمين جميعًا في أنحاء العالم إلا أن يستمروا في الجهاد ، وأن يُوَسّعوا رقعته طولًا وعرضًا ، يومًا بعد يوم ، وعامًا بعد عام ، مهما عَظُمت التضحيات ومهما طال أمدُ المعركة ؛ حتى يضطر اليهود إلى إعادة كل شبر من الأرض المغتصبة . وأي مساومة أو تسوية تعرض للخطر الحقوق الشرعية لإخواننا في فلسطين ، إنما هي خيانة من شأنها أن تهدم النظام الأخلاقي الذي يرتكز عليه عالمنا .

ليست هذه الأفكار انعكاسًا لسياسة جديدة للإسلام تجاه المسيحيين أو اليهود أَمْلَتْهَا ظُروف مرحلية مؤقتة ، وإنما هي استنتاجات مستقاة من المبادئ الإسلامية في الاعتراف بالمسيحية واليهودية كما تقرَّرتْ في القرآن الكريم ، ونُورد فيما يلي بعضَ شواهد قرآنية تؤكد هذه المبادئ :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ * وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧ – ٤٩] .

الرأسمالية والاشتراكية

تُرى في أي صورة بنيوية وفي أي قالب سياسي ينبغي للنهضة الإسلامية اليوم أن تتشكل ؟ وهل توجد صورة معينة من صور المؤسسات والمجتمعات في الحضارة الغربية كالديمقراطية النيابية أو الرأسمالية أو الاشتراكية تصلح للمجتمع الإسلامي ، وهل سيكون لِزامًا على مجتمعنا أن يُتَابع في مسيرته هذه الصُّور وأشباهها ؟

لقد استحكمت – خلال القرنين الماضيين – فكرة أن جميع الدول لا بد في النهاية أن تتحول إلى الديمقراطية النيابية . وقد أثبتت التطورات الحديثة خصُوصًا في فترة ما بين الحربين العالميتين عكس هذه الفكرة في بعض الحالات ، واتضح أن الديمقراطية التقليدية ليست مرحلة حتمية للتطور الاجتماعي والسياسي للمجتمعات . وعلى الطرف الآخر هناك من يُحاول اليوم أن يُثبت أن الاشتراكية هي الاتجاه الأساسي الذي يتحرك إليه المجتمع الإنساني سَواء رَغِب في ذلك أو لم يرغب . إلا أن التطورات المعاصرة في الدول الرأسمالية بأوربا وأمريكا تُنْكِر بإصرار هذه النُّبوءة التي تتذرع بالحتمية التاريخية وتُشير إلى أَوْجُه غير متوقعة للتطور ، وفي جانب آخر من العالم (في اليابان) حَدَثَت قفزة من الاقتصاد الإقطاعي مباشرة إلى ما يمكن أن يُسَمَّى في أوربا بصورة أَعْلى من الاحتكار الرأسمالي . فالأنماط التي اعتاد الناسُ على تصنيف التطور التاريخي بمقتضاها أصبحت نسبية جدًّا ، وإذا وجدت أي قواعد لتطور المجتمع فمن الواضح أنها ليست تلك القواعد التي وَضَعَها الفكر الأوربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(٨٤) .

هذه الحتمية الوهمية التي عَمِلت على قَمْع ضمير الأجيال الأخيرة قد استُغلت كوسيلة نفسية قوية لترويج الأفكار التي رَسَّبَتْ في عقول الناس أن نُظم الحكم هي التي تَجْلُبُ الرَّخاء وتحل المشاكل . والواقع أن النظام الحاكم لا يؤثر في أوضاع بلد ما إلا بمقدار ما يستطيعه من تَنشيط للعمل وتنظيمه تنظيمًا مباشرًا ، فالعمل هو المصدر الحقيقي لجميع الثروات .

---

(٨٤) انظر : كتاب « علي عزت » « الإسلام بين الشرق والغرب » ، ص (٣٥٤ ـ ٣٦٠) تحت عنوان « ماركس والماركسية » . « **المترجم** » .

فإذا تحررنا من « هَوَس » الحتمية التاريخية والتفتنا إلى وَسَطيَّة الإسلام يمكننا – دون أي تَعصُّبات – أن نكتشفَ ما تنطوي عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشر ، لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية ولكن باعتبارها تجارِب معينة تمارسُها المجتمعات المعاصرة .

إنَّ الرأسمالية والاشتراكية في صورتهما الأصلية الخالصة لم يَعُد لهما وجود في الواقع فقد تجاوزتهما التطورات السريعة التي حَدَثَت عقب الحرب العالمية الثانية . إلا أن الاقتصاد السياسي الماركسي المُتَحَجّر– الذي خرج من نطاق العلم وأصبح بالتدريج صناعة سياسية – يستمر في تكرار عباراته التقليدية ، كأن شيئًا لم يتغير في هذا العالم على مدى الخمسين عامًا الماضية . وإننا لنستطيع أن نحكم – استنادًا إلى شواهد كثيرة ذات دلالة – بأن المعايير التي تفرق بين ما هو رأسمالي وما هو اشتراكي تُوشك أن تكون غير كافية لتحديد الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في المستقبل القريب .

فإذا كان علينا – تَبعًا لذلك – أن نَدَع الشعارات والمصطلحات المضلّلة جانبًا ، وأن نأخذ في حسابنا فقط الحقائق التي نراها ماثلة أمامنا ، فيجب أن نعترف بالتطور الهائل في العالم الرأسمالي خلال الثلاثين سنة الماضية التي كَشَفَتْ عن حيويته وقدرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام ، إلى جانب أنه استطاع أن يتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانوني .

كما أنه لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكي ، وخصوصًا في مجال تعبئة الموارد المادية وفي التعليم وفي القضاء على صور الفقر التقليدية . ومن ناحية أخرى لا يَسَعُنا أن نَتَغَاضى عن جوانب مظلمة وغير مقبولة في التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ، ولا أن نتجاهل الكوارث الكبرى التي تزلزل

كلًّا من النظامين من وقت لآخر .

ولا شك أن الانفتاح العملي للإسلام في مجال حل المشكلات يجعله في وضع متميّز يُمكّنه من دراسة التجارِب الإيجابية والسلبية للآخرين دون تعصبات ، ولا سيما تجارِب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واليابان ، فهذه الدول الثلاث تمثل من حيث المبدأ والممارسة مَدَاخل شديدة الاختلاف في معالجة القضايا الأساسية للرخاء والقوة .

وقد أثبت تطور الرأسمالية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة وُجُود أخطاء موروثة في بعض الفروض الأساسية للماركسية نذكر منها ثلاثة فيما يلي :

١ـ لم يثْبُت أن التناقض بين القوى المنتجة ، وبين علاقات الإنتاج في النظام الرأسمالي قَدر محتوم ، فالرأسمالية لم تتغلب على هذا التناقض ، ولكنها حققت إلى جانب ذلك تَقَدُّمات لم يسبق لها مثيل مِن قَبل في مجالات انطلاق الإنتاج والعلم وإنتاجية العمل .

٢ـ أن الطبقة العاملة في أكبر الدول الرأسمالية لم تلجأ إلى طريق الثورة .

٣ـ أن العلاقة بين الوجود والوعي أو بين « القاعدة » و « البنية الفوقية » ليست كما تنبأ ماركس ، فأمامنا رأسمالية في السويد ورأسمالية في الأرجنتين والاختلافات في « القاعدة » في هذين البلدين اختلافات في الدرجة . أما الاختلافات في بنياتهما الفوقية (من أشكال السلطة السياسية والقوانين والدين والفلسفة السائدة والفنون .. إلخ) فهي اختلافات جذرية .

التطور في العالم – إذن – لم يَسْلُك الطريق الذي رَسَمَهُ له ماركس . وهكذا وجدنا الدول المتقدمة تحتفظ بنظمها الرأسمالية وظلت تطورها . بينما

جاءت الاشتراكية إلى السلطة في عدد من الدول المتخلفة التي تعتبر من وجهة نظر الماركسية شذوذًا لا تفسير له(٨٥) .

فبم نُعَلّل اهتمام البلاد المتخلفة بأشكال معينة من الاقتصاد الاشتراكي ؟

أولًا : لقد ثبتت فائدة هذا الاتجاه في تنظيم اقتصاد ضخم مناسب لدول لا تملك نقاط بداية ؛ بمعنى أنه ليس لديها رأسمال ولا موارد فنية كافية ولا نظام عمل متطور .. إلخ .

ثانيًا : إنَّ البيئات الأكثر تَخَلُّفًا سرعان ما تتكيف بسهولة لأنواع مختلفة من القيود (كتقييد الحرية الشخصية ، والمركزية والسلطة القوية ... إلخ) ، وهي قيود عادة ما تصحب أنواعًا معينة من الاشتراكية .

ثالثًا : على الرغم من أن الاشتراكية قد استُبْعِدَتْ من أن تكون عِلْمًا ، فإنها استمرت في البقاء كأسطورة ومغامرة ، وهذا الجانب المهِمُّ في الاشتراكية يُفَسّر أثرها الأقوى بالدول الكاثوليكية واللاتينية عنه بالدول البروتستانتيَّة والجرمانية(٨٦) .

---

(٨٥) يقول « علي عزت » : « إن اضطراب التفسيرات المادية للأحداث التاريخية من السهل التدليل عليه بتحليل أي فترة من فترات التاريخ ، ولكن – أبعد من هذا – هناك سخرية تاريخية في حقيقة أنه حتى ظهور الحركات الشيوعية نفسها وظهور الدول الشيوعية .. يعتبر حجة ضد النظرية المادية ، فالانقلابات الشيوعية لم تحدث حيث كان ينبغي أن تحدث طبقًا لهذه النظرية .. ولم يكن نجاح الحركات الشيوعية حيث تَوَافَرت الظروف الموضوعية ، وإنما حيث تَوَافَرت عناصر شخصية غير موضوعية : أي ظهور حزب شيوعي قوي أو بتدخل من قوة أجنبية . انظر : المصدر السابق ، ص ٣٥٦ . « **المترجم** » .

(٨٦) انظر : المصدر السابق تحت عنوان : « التسوية التاريخية » ، ص ٣٨٢ – ٣٨٩ .

وعلى النَّقيض من ذلك فإن الروح البرجماتية (العملية) للرأسمالية هي أكثر صلاحية لعقلانية مجتمع متقدّم . ولقد ثبت أن الأشكال المتقدمة من الاقتصاد الرأسمالي تَعْمَل بنجاح في مجتمع يتمتع بحكومة ديمقراطية ، مجتمع على مستوًى ثقافي عالٍ ، كما يتمتع بدرجة عالية من الحرية الشخصية والسياسية ، وفي إطار ظروف كهذه يمكن تحييد بعض الجوانب غير الإنسانية في الاقتصاد الرأسمالي إلى درجة كبيرة بدون أن يُؤَثّر هذا على كفاءته[٨٧] .

ومن ثمَّ فإن قصة حتمية هذا النظام أَوْ ذلك هي في التحليل النهائي مُجَرَّد وَهْم . أما الذي هو ضروري ولا مفر منه في الحقيقة فهو دوام حركة الاقتصاد المدعم بالتقدم العلمي والتّقني المستمر ، كذلك فإن تحسين عملية الإنتاج وتحسين أدوات الإنتاج هو النشاط الوحيد الذي « يجب » أن يحوز على اهتمام الناس . وإذن فلا الإسلام ولا العالم على نطاق أَوْسَع مُوَاجه بحتمية رأسمالية أو اشتراكية فمثل هذه الحتمية ليست أكثر من وَهْم لا وُجود له ، وإنما الذي يواجهنا هو مسألة اختيار نظام للعلاقات بين الملكيَّة والإنتاج .. والعمل المتواصل لتحسين هذه العلاقة بحيث تُصْبح على مستوًى عالٍ من الكفاءة وعلى اتساق بالمفهوم الإسلامي للعدالة الاجتماعية التي من شأنها أن تُحفّز الناس على النشاط والعمل بأحسن الوسائل الممكنة ، وأن تتصدى لحل المشكلات التي يَفْرضها التطور في الإنتاج والتقنية .

---

(٨٧) مثال ذلك : أن المصانع قد تضطر للاستغناء عن بعض الأيدي العاملة نتيجة للكساد الاقتصادي أو التوسع في استخدام التكنولوجيا الحديثة ، ولكن لا يتعرض العمال للفصل التعسفي ولا تضيع حقوقهم ، فلهم نقابات عمالية قوية تحميهم ولهم عند الدولة حقوق الكفالة المادية أو ما يسمى بتعويض البطالة إلى جانب أنواع أخرى من الرعاية الاجتماعية . « **المترجم** » .

خلاصة

لقد عرضنا لبعض الأفكار الرئيسة وبعض المشكلات الجوهرية للنهضة الإسلامية وهي التي تستولي على عقول الناس بصفة متزايدة ، باعتبارها تحولًا عامًّا للشعوب المسلمة خُلقيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا . ففي وسط الهزائم المتلاحقة والإحباطات المطبقة تأتي فكرة النهضة الإسلامية لتشيع الأمل من جديد وتفتح طريقًا لإنقاذ منطقة فسيحة الأرجاء من هذا العالم .

ولا يُوجد مسلم يَشْعر بأن ارتباطه بالإسلام ليس مجرد صدفة ، بل ارتباط منهج والتزام – ثم يرفض هذه الرؤية ، إلا أن كثيرًا من المسلمين الحيارى سوف يتساءلون : أين لنا بالقوة التي تحقق هذه الرؤية ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نشير إلى الأجيال المسلمة الناشئة ، إلى هؤلاء الشباب الذين سُرعان ما أن يشبّوا عن الطوق ، هذه الأجيال التي تُشَكّل ما يقرب من مائة مليون فتًى وفتاة أو يزيدون ، ولدوا في رحاب الإسلام ونشئوا على مرارة الهزائم والامتهان ، وتوحدوا على الوطنية الإسلامية ، هؤلاء الشباب سوف يرفضون العيش على أمجاد الماضي وعلى المعونات الأجنبية ، وسوف يجتمعون حول أهداف يتحقق فيها الصدق والحياة والكرامة ، وسَيَحْمِلون في قلوبهم القوة القادرة على تحقيق هذه المهمة العسيرة وعلى التَصَدّي لكل التحديات .

لم يكن ممكنًا أن يظهر مثل هذا الجيل من قبل ، فقد كان علينا أن نعيش عصر الوهم والأخطاء حتى نهايته ، حتى ينكشف لنا بجلاء عجز الآلهة الزائفة وعجز الزعماء والآباء و « المنقذين » للوطن والمصلحين للمجتمع ، وعجز

الملوك و « المهدي المنتظر » . فعلى يَدِ هؤلاء جميعًا تجرّعنا مَرَارة الهزيمة في سيناء ، وهم الذين وضعوا أندونيسيا في مهبّ الأخطار ، وهم الذين جعلوا باكستان دائمة الاضطراب . لقد تحدَّثوا إلينا كثيرًا عن الحرية والرخاء والتَقَدُّم ، ولكننا لم نلق على أيديهم سوى الطغيان والفقر والفساد. كان هذا كله ضروريًّا لكي نصل إلى لحظة الصحوة . كان هذا كله ضروريًّا لميلاد جيل جديد ، يرى بوضوح أن كل هذا لم يكن سوى تيه وضَلال لا جدوى فيه ، وأن ثمة طريقًا واحدًا لخروج العالم الإسلامي مما يتخبط فيه ، أن يعود إلى منابعه الروحية والمادية الخاصة به ألا وهي الإسلام والمسلمون .

العَالَم المُسْلم اليوم خليط عجيب من أجناس وشعوب وقوانين وسلطات شتى ، ولكن يوجد شيء واحد في كل ركن من أركان هذا العالم يتقبله جميع المسلمين بنفس الاحترام والإخلاص ، ألا وهو القرآن . إنه نفس الشُّعور تجده في « جزيرة جاوه » كما تجده في الهند وفي الجزائر وفي نيجيريا ، شعور بالانتماء لأمة إسلامية واحدة ، هذا الشعور الفطري بالانتماء إلى القرآن وإلى الأمة الإسلامية كامن في قلوب ملايين كثيرة من عامة الناس ، إنه شعور يَمتلك مخزونًا هائلًا من الطاقة الكامنة ، ويمثل حقيقة واحدة في أنحاء العالم المسلم اليوم . ولذلك فإن العالم المسلم يعتبر جماعة روحية ذات أبعاد عالمية ، ولعلها هي الجماعة الروحية الوحيدة متعددة القوميات التي لا تزال حية في العالم إلى هذا اليوم (بصرف النظر عن كونها لم تحظ بأي قدر من التنظيم) .

وكجزء متكامل مع هذه المشاعر ، ونتيجة لتأثير الأخلاق الإسلامية على مدى القرون – تصادفنا على صورة حكمة شعبية ، أفكار حية تتعلق بالمساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح والرحمة والإحسان والرفق بجميع

المخلوقات . هذه الحقائق في حد ذاتها لا تعني وجود عالم أفضل وأكثر إنسانية (متحقق بالفعل) ، ولكنها تَعْنِي وعُودًا بعالم من هذا القبيل .

هذه المشاعر تدل على أن العالم المسلم لم يَمُتْ وإنما لا يزال حيًّا ينبض بالحياة ، فحيث يوجد الحب والشعور بالأُخوة الروحية لا يوجد موت بل حياة . إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة ، وإنما هو تربة عذراء في انتظار الزُّرَّاع . وبفضل هذه الحقائق فإن مهمتنا تُصْبح واقعية قابلة للتحقيق . إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر (الكامنة) إلى قُوًى فعالة مؤثرة . فالإخلاص للقرآن لا بد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه ، وأن تتحول الجماعة الإسلامية المبنية على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة ، وأن يتحول حبُّ الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات (في المجتمع الإسلامي الناهض) .

مَنِ الذي سيقومُ بهذا التغيير وكيف يُمكن تحقيقُه ؟

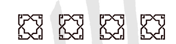
إنَّ كُلَّ عملٍ يُرادُ به التأثيرُ على الأحداث لا بد أن يكون عملًا اجتماعيًّا ، وكل نضال ناجح لا بد أن يكون نضالًا مشتركًا مُنَظَّمًا ، ولن يكون الجيل الجديد قادرًا على القيام بمهمته في التغيير إلا إذا وَضَعَ طموحاته ومثاليته في قَالب حركة مُنَظَّمة يقترن فيها الحماسُ والقيمُ الشخصيةُ للأفراد ، بأساليب العقل المُنَسَّق المشترك ، وتأسيس مثل هذه الحركة بهدفٍ واحدٍ وبرنامج واحد هو شرط ونقطة انطلاق للنهضة في كل دولة مسلمة .

على هذه الحركة أن تَحْشد في إطار واحد ما قد تمَّ بناؤه بالفعل وترفع بناء ما لم يكتمل بنيانه ، عليها أن تدعو الناس وأن تستنهض الهمم ، وأن تحدد الأهداف وتوفر الوسائل لتحقيقها ، إنها ستبث الحياة والفكر وروح العمل في

كل مكان ، وستصبح الضمير والإرادة لعالم يصحو من نومٍ طويلٍ عميقٍ .

إننا ونحن نبعث بهذه الرّسالة إلى جميع المسلمين في أنحاء العالم نودُّ أن نؤكِّد بكل وضوح أنه لا يُوجد أرض ميعاد ولا صانعو معجزات ولا مهدي منتظر ، فليس أمامنا سوى طريق واحد فحسب ، هو طريق العمل والجهاد والتضحية .

ولا ينبغي – ونحن في لحظات الشدة – أن ننسى أمرين : أننا نستمد العونَ والبركةَ من الله ، والتأييدَ من إجماع أمتنا ورضاها .





الكشّاف

۞ ۞ ۞ ۞

المؤلف في سطور



– ولد على عزت بيجوفيتش سنة ١٩٢٥م ، من أسرة بوسنية مسلمة عريقة ، في تاريخ البوسنة ، بمدينة (بوسانا كروبا) . وتعلم في مدارس مدينة (سراييفو) وتخرج من جامعتها ، في القانون والآداب والعلوم .

– عمل مستشارا قانونيا خلال ٢٥سنة ، قبل أن يعتزل ويتفرغ للبحث والكتابة .

– في سنة ١٩٤٩م حكمت عليه السلطات الشيوعية بالسجن ٥ سنوات ، بتهمة علاقته بمنظمة (الشبان المسلمين) المحظورة ، وأُفرج عنه سنة ١٩٥٤م ، وكان عمره ٢٩ سنة ، عمل بعدها محاميًا في أحدى الشركات ، ونشأت بينه وبين (حسين دوزو) صداقة ، وكان الأخير قد تخرج من جامعة الأزهر وعيّنته الحكومة اليوغسلافية رئيسا لجمعية علماء المسلمين ، وقد أتاحت له هذه الصداقة نشر مقالاته في مجلة الجمعية المُسَمّاة (تاكفين) خلال الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي ، وكان يوقع مقالاته بإسم مستعار ، يتكون من ثلاث حروف (ل . س . ب) وهي الحروف الأولى من أسماء أبنائه (ليلى ، وسابينا ، وبكر) ، واستطاع إيصال فكره إلى خمسين ألف مسلم من قُرّاء المجلة .

– وفي سنة ١٩٨١م ، قام ابنه (بكر) بجمع هذه المقالات في كتيب ، وضع له عنوان (الإعلان الإسلامي) ، فأثار الكتاب ضجة إعلامية كبيرة في يوغسلافيا ، في سنة ١٩٨٣م ، واتُّخذ ذريعة للحُكم عليه مع مجموعة من رفاقه بالسجن ، بتهمة إحياء نشاط منظمة (جمعية الشبان المسلمين) المحظورة ، تراوحت أحكام السجن ما بين ٥ إلى ١٤ سنة ، ثم أعيدت المحاكمة بعد ٦ سنوات ، تحت ضغط

منظمات حقوق الإنسان ، التي أثبتت للمحكمة بالوثائق ، أن التهم كانت ملفقة ، فبرأتهم المحكمة سنة ١٩٨٩م .

– بعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي ، أنشأ علي عزت وصحبه « حزب العمل الديمقراطي » ، وخاض به انتخابات البوسنة المستقلّة في نوفمبر ١٩٩٠م ، وفاز بأغلبية ساحقة ، وفي ذلك الوقت كان التوتر قد بلغ أشده بين صربيا من ناحية ، وبين سلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى ، وكان (ميلوسفيتش) - المتعطش للدماء - يخطط لإقامة صربيا الكبرى ، فحارب الصرب المسلمين ، واستولوا على ٧٠٪ من أراضي البوسنة ، ودبَّروا لهم المذابح الوحشية ، ومعسكرات الإبادة والاغتصاب ، لكي يستأصلوا شأفتهم من البوسنة ، وعجزت الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية ، عن وقف سفك الدماء وإرجاع حق المسلمين إليهم ، حينذاك تأكّد علي عزت أنه لا أمل للمسلمين إلا في المقاومة المسلّحة ، فأعتزل المفاوضات العقيمة ، وعاد إلى (سراييفو) ليقف مع شعبه الأعزل ، صامدًا مجاهدًا محتسباً ، لا أمل له إلا في وجه الله ونصرٌ من عنده .

– أثرى علي عزت المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات ، منها :

١– الإسلام بين الشرق والغرب ٢– الإعلان الإسلامي ٣– فرار إلى الحرية .

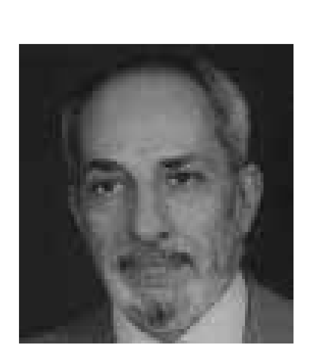
٤– مذكرات علي عزت .. أسئلة لا مفر منها .

٥– الأقليات الإسلامية في الدول الشيوعية .

– وقد نال علي عزت الكثير من الجوائز من أهمها : جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٩٣م .

– توفي علي عزت في ٢٠٠٣/١٠/١٩م عن عمر يناهز الثامنة والسبعين ، بعد جهاد وكفاح مرير ، رحمه الله وأدخله فسيح جناته .

المترجم في سطور



– هو الأستاذ محمد يوسف عدس ، مُفكر وكاتب موسوعي ، جمع بين الفلسفة والمكتبات والمعلومات والاقتصاد الإسلاميّ وتاريخ الأقليات الإسلامية في العالم .

– ولد بقرية بُهُوت بالدقهلية (مصر) عام ١٩٣٤ ، ولهذه القرية تاريخ في الثورة على الإقطاع .

– تعلَّم في بُهُوت والزقازيق والمنصورة ، وتخرّج في قسم الفلسفة بآداب القاهرة عام ١٩٥٧ .

– كان من أوائل من عملوا أمناء مُتخصِّصين للمكتبات المدرسية وبدأ عمله عام ١٩٥٨ بطوخ الثانوية وكان رائدًا لحركة ثقافية مُهِمَّة في هذا المجتمع في الستينيَّات .

– قام بعمل دراسات عليا في علم المكتبات والمعلومات والاقتصاد وإدارة المؤسسات ، في إستراليا بجامعة « كمبرا » من ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨م

– عمل مديرًا للمركز الثقافيّ المصريّ في الفلبين من ١٩٦٤ – ١٩٦٥م ، ثم موجِّهًا للمكتبات المدرسية في محافظة القليوبية ، وأنشأ أول مكتبة سمعية في مصر وعدّة مكتبات للأطفال ، واهتم بالدراسة التحليلية لأدب الأطفال .

– هاجر إلى إستراليا عام ١٩٧١م ، وعمل خبيرا بالمكتبات في جامعة بندجو بفكتوريا من ١٩٧١ – ١٩٧٤ ، وبالمكتبة القومية الاسترالية ، وأسهم في إصدار الببليوجرافيا الوطنية الإسترالية .

– انتقل إلى قطر عام ١٩٨٠ خبيرًا لمنظمة اليونسكو لإنشاء مكتبات جامعة قطر ، وأَدْخَل بها خدمات قواعد المعلومات (قبل ظُهور الإنترنت) .

- شارك في مؤتمرات وندوات في العديد من الدول العربية والأجنبية منها : مصر والسعودية وقطر والكويت والبحرين وتونس والمغرب وإستراليا وبريطانيا .

- له العديد من الدراسات في علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وله تَقَارير مَيدانية عن المكتبات في سلطنة عمان واليمن (الجنوبية) والأردن ومصر .

- عاد إلى مصر في ١٩٩٥م وتفرّغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلاميّ والأقليات المسْلِمة في العالم والظلم الإمبريالي للشعوب الفقيرة في العالم الثالث ، وكَشَفَ الأَقنعة عن منظمات دولية تتستر خلف شعارات التنمية ، مثل البنك الدوليّ ، وصندوق النقد الدوليّ ، ومنظمة التجارة العالمية ، وكشف عن التطهير العِرْقِيّ في البوسنة ، وكوسوفا ، ومشكلات المسلمين في مقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى ، وله دراسة مبكرة عن مُسْلمي الفلبين وتاريخهم ومشكلاتهم (بعنوان : الفلبين - دار المعارف ، ١٩٦٩م) .

- تَرْجم أعمالًا عالمية إلى العربية ، ومن أهمها : « الإسلام بين الشرق والغرب » و « الإعلان الإسلاميّ » ، وكلاهما لعليّ عزت بيجوفيتش ، و« مختارات من الأدب الفلبيني » وغيرها مما يُترجَم لأول مرة .

- كَتَب عن شخصيات مؤثرة في العالم إيجابًا وسلبًا ، منها : عليّ عزت بيجوفيتش ، جورج جالاوي ، ديك تشيني .

- بَلَغت كُتبه المؤلفة والمترجمة أكثر من ١٢ كتابًا ، وعشرات المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات العربية .





The Islamic Declaration

By

Ali Izzetbegovic

Translated By

Mohamed Yusuf Ades

Al-Imam al-Bokhary
Publishrs